صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق - ص.ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العدد التاسع
شباط (فبراير)
١٩٦٢
السنة الرابعة

علم جمال الشعر

بقلم : الدكتور زكي المحاسني



يقول بعض القياسين ، ويناصرهم المتحذلقون ان الفن لا يؤثر القيد ، وأن لا سبيل للعلم اليه .. وما أجد الفن - وأنا أخالفهم في هذا أجمعين - الا ممزوجا بالعلم وقائما على قواعده . أفلا نجد كيف أن منتوج الفن في

النحت لا تقوم أنصابه الا على قواعد . ان قاعدة التمثال هي التي تنهض به ، وتصون بهجة منظره ، وهي التي ترفعه الى مدار الانظار . كذلك أعد الفن قائما على قواعد العلم . ومن ههنا أدلف الى الكلام على علم جمال الشعر .

كنت أشاهد ، ذات أمسية ، على أضواء خلابة من ثريات معلقة في بهو حافل . وكانت تتكسر أشعة الكهرباء على زجاج الثريات ، فترمي أنوارها المتلاعبة على صبايا جائلات بين الجمع الهامس ، وقد اتخذت كل حسناء لبوسا ، لو بعثت « حواء » فشاهدته لعاينت ما صنعت المدينة في القرن العشرين لبناتها الخوالب ، فتبسمت راضية ، وأي أم لا تتبسم ضاحكة وملء قلبها البهجة لزينة ابنتها الجميلة . وقد كنت في تلك السوانح الي منحتني اياها أمسية زاهية أقلب النظرات في جمال المرأة ، فأرى الى تصفيف الشعر طبقا على طبق ، حتى خيل لي أني أرد الطرف الى شهور خلت حين وقفت مع جم متقاطر على أبواب قصر « بكنغهام » في لندن نرقب عند الظهيرة طلوع الفريق الحارس ، في لبوسه الذي لم يستطع التاريخ أن يخلعه عن مناكبه ورؤوسه ، وكانت

الرؤوس تحمل جمة من الشعر الفاحم ضخمة كبيرة ، تنزل حتى أواخر الآذان ، وتجلل العيون والجباه ، وقد تتناول أرنبات الانوف . فقلت يالله : حين شاهدت حسان السهرة – ما أشبههن بفريق الحرس الامبراطوري ، وراء قضبان الحديد من قصر «كنغهام ... ولم أجد فارقا كبيرا ، فان ذلك الحرس يصون القلعة ، وهذا الحرس يصون القلوب ، وفيم تتخذ المرأة ضروب الزينات للوجه والكتفين والرأس ، لو لم تكن حريصة على قلب الرجل ، فلو خلت الارض من الرجال ، لما اقتنت امرأة على الارض كحلا ، ولا عقدا ، ولا ثوبا زاهيا ، ولظلت كنساء الكهوف الاوليات ، منفوشةالشعر، خشنة البدن .

لست أبتعد بقارئي في مجلة (الثقافة) عما أردت له من مطارحة الفكر والشعر في هذا المقال . فان للشعر علم جمال ، تقوم مقاييسه ومعاييره على قواعد مأثورة مبتكرة ثم متبعة ، يدعو بعضها بعضا الى استنباط جديد . وبحسبي أني وقفت مرة متمليا دقائق العلم في جملة فنية قالها ، بول فاليري :

« انني أصنع الشعر كما يبني المهندس البناء » .

ولم ألبث أن انطلق خيالي الى تمثل الابنية الطينية ، فوجدتها نصب عيني فقد نشأ الكثير منا تحت سقوفها ، كان آباؤنا لا يتخذون نظاما هندسيا فيها ، فمن هنامسرب زقاق ، ومن هنالك مدخل يفضي الى بيت ، وترفع طرفك فترى بعض رواشن البيوت البارزة قد تصافحت من كل جانب ، فاذا دخلت فناء الدار عاينت الحيطان قد نهض كل واحد منها بشكل مغاير ، وركبت فوقها المخادع والحجر بين صغير غير متناسب وكبير لا يخضع لنسق من الانساق . ولقد يستقبلك من خلف الباب مكان من حقه أن يكون في معزل عن النظر والشميم .. فاذا رددت النظرة الى الابنية التي خطت قواعدهاالهندسية عرفت قيمة القول العلمي لفن الشعر الذي قاله « بول فاليري » شاعر الرمزية الفاضلة في عصر الادب الحديث .

من عند الله وحده ينبع الجمال ، فالله وحده هو الجمال المطلق ، وما آثار الشعر الامنتوج الشعوروالفكر، وهما من أنعم الله على خلقه الانسان الذي وجبت عليه رسالته في الجمال ، أن يبنيه وأن يحييه ، وأن يسعى اليه في كل مظهر من مظاهر الوجود . سرح نظراتك في الطبيعة تجده متراثيا على صفحة الينبوع ، وفي مياد الغصون ، وعند عبير الازاهير ، ولدن أناشيد الطيور . وانظر اليه عند الانسان تجد أول مطالعه على الوجوه التي تحليها الارواح . فاذا طلبت ما وراء المنظور فاقصد الى ثمرات القرائح فانها وحدها في الكون ، هي التي تعطيك من منتوج الفكر والشعور قصائد الشعر ومقطوعات الفن الذي ينسج فيه الكلام قائما على قواعد ثابتة ، حين يدخلها الضيم يزلزل صرح الجمال ، ويهوي كأنجم الخابي .

وقد تسللت أذهان أوائلنا من العارفين والنظارين الى علم جمال الشعر ، والكلام العربي المبين ، فقدرت « البيان والتبين » لابي عثمان الجاحظ كاتب العربية منذ القرن الثالث للهجرة حتى اليوم أنموذجا لاهل عصره بعلم جمال التعبير وهب من قبله جماعة صنعوا أهم نماذج الجمال ، في آثارهم الادبية في المنثور والمنظوم ، ولكنهم لم يقرروا القواعد العلمية لفن الشعر ، حتى جاء أئمة البلاغة العربية وسدته هيكلها على سرادق العصور فأبان عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز وأبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين وشاركهما قدامة بن جعفر وابن رشيق القيرواني وجمع غفير من أمثالهم كانوا المهندسين لبناء العربية بعد أن منحهما القرآن عزة فنها وصميم قدرتها على التعبير . وبعد أن أورثها الشعراء الجاهليون هذا الجمال الفني الذي صفوا ، هم قبل غيرهم ، قواعده في الشعر . انهم لم يصفوا القواعد العلمية للشعر على نحو من صناعة زماننا وانما كان شعراؤهم ملمين في العلم ، كما ألهم الخلاق الطيور حين تبني أعشاشها ، وكما وشوش النمل في آذانها الرهيفة كيف تصنع بيوتها المسدسة التي تزل فيها سوائغ عسلها الساحر . انني لا أعرف حتى هذه الساعة قصيدة في

تاريخ الشعر العربي صنعها شاعر لاحق جاءت أجمل نسقا وأطيب روحا وريحانا من قصيدة (قفا نبك من ذكرى حبيب ومغزل) • ولسوف يظل امرؤ القيس فتى الشعر العربي الذي لا يشيخ على الزمان • وسيظل الصدى يصرخ حول مصرعه ومرقده الى أنقرة حيث يقال أنه توسد الثرى هنالك وهو قافل من عند جوستنيا رؤس « ملك قسطنطينية ، اذ مات غريبا شريدا ، وحنت على رقدته الاخيرة امرأة كانت هناك في الثرى من قبله غريبة • فمن سفوح جبل « غسيب » الذي كان يطل على ضجعة الملك الضليل ومن جبل التوباد ، وقد أقام عند سفوحه مجنون ليلى يذرف دموعه على المحبوبة المقهورة، تنطلق روح شعر عربي بناه أصحابه بناء هندسيا علميا واصطنعوا له حلاوات الفن التي حفظت جماله حتى اليوم وستظل حفيظة عليه ما دام لسان الانسان العربي وفكره يجودان بغرر الكلام وسحر البيان وروائع التفكير •

وبحسب معرفة الشاعر لعلم جمال الشعر تكون جودة أثره ، وصحة بنائه وطيب نفحاته • لقد كان (فيكتورهوغو) أعرف شعراء عصره بقواعد الشعر حتى حير بها ألباب نقاده • كان يسمع طنين الكلمات في خلده كما تطن آنية الذهب ، وكما تعطيك الصدى قصعة من الصيني النفيس • وكم أستسقي الذكريات رحماتها على النواسي حين مر بالسوق في كرخ بغداد ، ولعله كان ساعتئذ ذاهبا في النهار الى بعض الجد من شأنه ، تاركا الليل وراءه وأمامه لمطارح لهوه وهزله ، فقعد بدكان صاحبه الاديب « أبي شعيب القلال » وكان أبو شعيب في تلك الآونة يدير بين يديه قلة من قلله يسويها باللون والحجم ، فقال للنواسي :

— سألتك الله أن تنشدني بعض شعرك يا ابن هانيء !

ولست أشك ، أن النواسي كان ساعتئذ صاحيا حتى أجاد الشاهد ، وأتي بالشعر الآخذ فقال منشدا من قصيدته :

ودار ندامى عطلوها وأولجوا
بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى
وأضغاث ريحان جني ويابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به
بشرقي ساباط الديار البسابس
لبثنا بها يوما ويوما وثالثا
ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
فللخمر ما ذرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

فلم تكد هذه الابيات الوارفة الفواحة تدور في تصور « أبي شعيب » الذواقة الاديب ، العارف بعلم جمال الشعر ، حتى تناول قلة صافية رهينة الطرائف فرفعها بين يديه ، وأخذ باصبعه يطرق جوانبها حتى رنت بين يديه ، ثم التفت الى أبي نواس ، وقال له :

— هذا شعر ، لو نقر عليه لطن •

فآخذ أذكر وأنا أكتب لقرائي هذا الكلام ،قصيدة للشاعر « سوللي برودوم » من شعراء الفترة الحديثة في مطالع الادب الغربي بهذا العصر ، سماها (الكأس المشعورة) وقد أدار في قصيدته معاني تتعلق بالقلوب التي حطمها الهوى وضاع منها الشباب ، فهي متماسكة في النظر ، لكنك حين تمسها تنهار تحت أنملك متناثرة أو متحطمة ••

فلو أن أبيات أبي نواس كانت مشعورة ، وغير شاعرة ، لامسك أبو شعيب بيده قلة مصدوعة ، ولكان لها بين يديه خنين بديلا من الطنين • وكذلك أجد الشعر الذي كان أصحابه حفيظين على علم جماله ، فسلبوه من قرائحهم الموهوبة التي يرفدها طويل زمن في ثقافة ومعرفة ووعي وشدو من اللغات ورسوخ في العربية وأصول كلها ، هم الذين يعجب أمثال أبي شعيب القلال من نقاد عصرنا

السن الخطرة

قصة بقلم : الدكتور محمد حاج حسين

كل واحدة منكن ياصديقاتي تحدثت عن حبها الاول البريء الذي توج بالزواج ، وخفقت عليه السعادة . ويبدو أنني الوحيدة بينكن التي تلعها هذه الذكرى ، وتجد فيها الانين والاسى والحرقة ..

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما أحسست بنار الحب تتقد بين جنباتي .. هذه السن الخطرة التي تصدق فيها العذراء الكلمات المعسولة ، والعبارات المنمقة، وعلى عينيها عصابة تحول بينها وبين رؤية الحقيقة والواقع . انها تطير بجناحين يخلقهما خيالها الطلق الى دنيا خاصة بها ينسجها الوهم اللذيذ الذي تجد فيه متعة ولذة لا تسمق اليها لذة ، ففي هذه السن الغضة المفعمة بالبراءة والطهر أحسست بلهيب الحب .. ولكن واحسرتاه كان هذا الحب نقطة من عسل في كأس مترعة بالحنظل . وكلما طافت بذهني ذكرى هذا الوهم الذي عشت فيه ردحا من الزمن ، وما ساوره من خيبة أشفقت على كل عذراء بيضاء القلب تندفع مع عواطفها تهدهدها أغاريد الحب يهمس بها شاب يعرف كيف يتسلل الى القلوب ليعبث بها .. ثم يغادرها حطاما ..

كنت ذاهبة في الحافلة الكهربائية الى مدرستي عندما بصرت قبالتي شابا أسمر فارع الطول ، جذاب الملامح ، في عينيه الواسعتين سحر غريب .. وحدق بي طويلا.. ولاول مرة في حياتي أحسست بعذوبة تنحدر الى أعماقي . ودق قلبي ، وأنا أتأمل محياه الوسيم ، وشاربيه المعكوفين، واحتدمت بي عواطف غريبة لا عهد لي بها .. هي مزيج من القلق والتوجس والطمأنينة . ودخلت المدرسة مشتتة الذهن لا أعي شيئا مما تقوله المدرسة .. ففكري ظل يحوم على هذا الشاب المجهول الذي طفر بي الى عالم جديد غريب .. لا أدري ماهيته ، وان كنت مطمئنة اليه . ولما وافاني الليل ، وخلوت الى حجرتي عكفت على تمثله ، واستعادة صورته . ان نظراته النفاذة حركت رواقد أحاسيسي ، وشبابه الاملود غمرني بسحر عجيب لا أدري كنهه . ولما لاح الصباح أسرعت في ارتداء ثيابي وانتظرت ميعاد ذهابي الى المدرسة بنافذ الصبر علني أراه ثانية .. ولم يكذب ظني ، فما أن

بآثارهم . وأما أولئك المتهافتون في ثقافتهم من الذين لا يقيمون العبارة ، ولا عرفوا لغة راسخة ولا شدوا من آداب الامم بمقدار كثير أو قليل ، وانما أرادوا أن يتخذوا من الصحافة التي لا ترديد لامس شهرة ومظاهر فنسجت لهم ألقاب الشعراء البواقع ، حتى اذا أخذت ترى الى مقولاتهم لم تجدها شعرا ولم تعرفها نثرا ، فهي مولود هجين تنكره العربية ويبرأ علم جمال الشعر الى خالقه فزعا منه ، كما تبرأ الام من وليدها حين تسأل الطبيب المولد وهي على سرير الولادة :

ـ ماذا وضعت ؟

ـ لقد جئت بولد شائن له رأسان وبطن واحد وهو بغير قدمين .

فتدير رأسها الى وسادتها وتبكي أسيفة حسرى ، ولعلها في سرها تلعن والده ومن زوجها منه . فاذا جاءها زوجها معاتبا ناقما اذ لم تلد له الفتاة الجميلة ولا الصبي الذي سيكون بطلا اذا شب واكتهل . قالت له ـ وهي الواعية بالفطنة ـ مقالة زوج الحجاج ، حين صدمته بهذه الكلمة :

ـ أنت الذي أعطيت ، فأنت الذي تأخذ .

كذلك فارق الحجاج زوجته فراحت مستريحة من مواليده الشائهة ، فمتى يتاح للعربية في عصرها الحديث وهبتها الحاضرة أن تستريح من مواليدها البغيضة وصورها المقيتة في القول الجديد الذي سينبو عنه حتى الابد ، علم جمال الشعر ..

استويت في مقعدي حتى رأيتـه يجلس قبالتي ، وقـد اتخذ أحسن زي ، فرجـل شـعره ، وصففه باتقان ، ورشق وردة حمراء في عروة سترته ، وراح يصوب الي نظرات من نار . واضطرب كياني ، واحمر وجهي . ولو طلب الي ساعتها أن ألقي بنفسي بـين ذراعيه لما ترددت ، انها الشرارة الاولى التي التهبت في قلب فتي متعطش الى الحب .

ودخلت المدرسة ضجرة بها ، وبهذه الدروس التي يحشدوها في أذهاننا .. ان رنوة من هذا الشاب أحلى على قلبي من هـذا اللغو الذي أسمعه ، ولا تختلج بي جارحة له .

ولما عدت الى البيت ، وجلست في مقعدي بالحافلة .. اذا بي لدهشتي أراه يبسم لي . وحاولت أن أرسم ابتسامة على ثغري أرد بها على ابتسامته . ولكن الحياء تعثر بي ، ففتحت كتابا ، وتصنعت القراءة ، وأنا أخالسه النظر بين الفينة والاخرى .. وعواطفي في اصطخاب شديد ، وأنفاسي تتلاحق مبهورة .. حتى اذا ما دخلت البيت كنت بادية الاضطراب . ولاحظت أمي وجومي وقلقي ، فحاولت أن تستفسر عن السبب ، فادعيت أن صداعا شديدا يفتك بي ، فقدمت لـي حبتين أسبرو ، فازدردتهما بسرعة ، وأنا أضحك في سري لغباوة والدتي . ولكن .. هل أستطيع أن أصارحها بأنني بدأت أحب ؟

لن أطيل عليكن يا صديقاتي .. فقـد ظل هذا الحبيب المجهـول يلازمني في غـدوي ورواحي طوال أسبوع .. وأنا في عالم جديد من العواطف تتدافع بي .. الى أن تبعني ذات يوم ، وأنا في طريقي الى المدرسة فاختلجت بي رهبة عجيبة ، وتخلخلت قدماي ، وأدركني بسرعة وقال :

صباح الخير يا ناديا .

واحتقن وجهي ، وتزايدت ضربات قلبي .. انه يعرف اسمي . وتطلعت اليه باسمة فتشجع وقال : أرجو ألا أكون أزعجتك .

واضطرب علي القـول فـلم يتلجلج فمي بكلمة واحـدة .

وتابع كلامـه : يا آنسة ناديـا .. أنـا غرضي شريف .. أريد الزواج بك .. فهل عندك مانع ؟

وكدت أغوص في الارض لفرط رهبتي . وعدوت الى مدرستي . وبحركة لا شعورية التفت ورائي عندما أصبحت على مبعدة منه ، فرأيته يبسم لي ويشير بيده الـي .

وفي اليوم التالي حدثني في الحافلة .. وأصغيت اليه ، ولم أدخل المدرسة يومها . ونزلت معه في أقرب محطة . وذهبنا الى السينما في حفلة الساعة العاشرة . وذهلت عن « الفيلم » ولما تشابكت منا الايدي سرت النار في عروقي ، وماد بي الاضطراب ، وأنا أتسقط أنفاسه اللاهثة أشم منها عبيرا عجيبا لا عهد لي به ..

ما أجمل الحب اذا انحدر لاول مرة في قلب الفتاة الابيض .. لقد اعترف لي بحبه .. وقال .. انه رآني صدفة ، فأخذ بي ، وظل يتبعني حتى عـرف اسـمي وأسرتي .. وسيتقدم ليخطبني من أهلي ، وأصغيت اليه بجوار حـي ، والشرارة الكهربائيـة تنطلق مني حتى خشيت أن تحرق كل شيء .. هل هنالك أندى من كلمات الحب على قلب العذراء المتفتح للحياة ؟. وسبحت في حلم وردي ، وهمت وراء الغيوم ، وأنا أشرب نبرات صوته القوي تحمل الي الحياة .

وعدت الى البيت موفورة السعادة ، موردة الخدين ، أتوثب مرحا وانطلاقا . وقالت لي أمي : أراك سعيدة ياناديا . وتفجرت ضحكتي ندية وهتفت : لقد تفوقت في دراستي اليوم .

وسـرت والـدتي ، وهنأتني ، وضرعت الى الله ليوفقني دوما . وكثر لقائي مـع هاني ، وتوثقت بيننا المحبة حتى أضحينا روحا واحدة تخفق في جسدين . وكنت أتعلل بشتى المعاذيـر لاهلي حتى أغـادر البيت لاوافي حبيب القلب حيث نذهب مفراحين الى السينما أو الى أحد المتنزهات ورأيتـه ذات يـوم واجما حائرا تنعقد عليه حسرات ، فسألته السبب بلهفة ، فراوغني ، وألححت عليه ، فتنهد وقال : أريد أن أخطبك يامنية الروح ..

ورفرف قلبي ، وغمغمت : ما أعذب هذه العبارة .

— ولكن ..

وأطرق قليلا ثم قال : انني خائف •
ـ لا تخش شيئا ما دمت أحبك •
ـ أخاف أن يصدني والدك •
ـ ولماذا يصدك ؟
ـ انك غنية ، وأنا فقير •
ـ أبي طيب • ولا يهمه سوى سعادتي •
ـ واذا رفض ؟
ـ سأصارحه بحبك ••
ـ أو تجرؤين ••
ـ ليس الحب بالعيب •
ـ صدقت •
ـ متى تتقدم الى خطوبتي ؟
ـ ساعة تشائين •

ورفت على ثغره ابتسامة ، وضمني الى صدره ، وقبلني • ورجفت أودار رأسي •• انها القبلة الاولى التي ذقتها في حياتي ، وأفقت من غاشيتها على سعادتي•• وقلت : هاني •• انني أعبدك •• وحتما والدي سيوافق ولا يهمني أن تكون فقيرا •• لان والدي سيساعدنا كثيرا حتى نشق طريقنا في الحياة •

ولكنه أطرق اطراقة أليمة وتصدع كبدي عندما رأيت الالم يغضن وجهه فأسرعت الى القول : ماذا بك يا هاني ؟ •

وانبعثت منه آهة جرحتني في الصميم وقال : لا أستطيع أن أقدم لك شيئا •
ـ لست بحاجة الى شيء •
ـ تصوري أنني لا أملك ثمن خاتم الخطوبة •
وضحكت قائلة : أنا أدفع ثمنه لك •
ـ شكرا يا ناديا •• ولكن ••
ـ ولكن ماذا ••
ـ ان في هذا امتهانا لكرامتي •
ـ وهل يوجد فرق بيننا •• كل ما أملك هو لك•
ـ اذن أستطيع أن أقترض منك بعض المال •
ـ أنت تأمر •

وفي اليوم التالي أعطيته ألفين ليرة سورية تجمعت لي من مصروفي وهدايا الاعياد •• ولمعت عيناه ببريق عجيب ، وقال : لن أنسى لك هذا الفضل ما حييت •

ولكنه لم يتقدم لخطبتي •• ومضت أيام كثيرات دون أن يفاتحني في هـذه الخطبـة التي كنت أتلهف عليها •• وأخيرا سألته لماذا لم يتقدم الى والدي ويطلب يدي •

ورجف قليلا وغمغم : اعذريني يا ناديا •
ـ على ماذا ؟
ـ أنا خجل منك •
ـ والسبب ؟
ـ صرفت المال •
ـ ماذا تعني ؟
ـ كانت أمي مريضة ، وأدخلتها المستشفى حيث أجريت لها عملية جراحية استنفدت معظم الفلوس التي أخذتها منك •

وهل أستطيع أن أكذب حبيبي ؟
وقلت : مسكين •
ـ وكيف نخرج من هذا المأزق الآن ؟
ـ لا أدري •
ـ ألا يمكنك يا ناديا أن تقرضيني مبلغا آخر ؟
ـ ان الذي دفعته لـك هو كـل مـا جمعته من مصروفي •• ولا أملك الآن شيئا •
ـ ألا يمكنك أن تجدي مخرجا •
ـ وكيف ؟
ـ ان والدك غني •
ـ لا أستطيع أن أطلب منه مبلغا كبيرا •

وهام علينا الصمت المرير • وأحسست بالشـفقة عليه عندما رأيت أساه وجزعه • ولمعت في ذهني فكرة •• وقلت ضاحكة : لقد وجدت الحل ، واتقدت عيناه بالمسرة ، وهتف : كيف ؟•
ـ سأعطيك مجوهراتي •
ـ مستحيل • لا أقبل •
ـ ما المانع ؟ انها ملكي •• وكل ما أملك هو لك•
ـ ولكن •• ماذا يقول ذووك ؟•
ـ لن يعرفوا لانها في خزانتي •• وقلما أستعملها•
وفي اليوم التالي جئته بها • وكانت ثمينة لا يقل

ثمنها عن خمسة آلاف ليرة سورية ، وتناولها ، وقد تهللت قسماته ، وشد على يدي بحنان ، وهتف : لن أنسى لك هذا الجميل .

– بعها .. وتقدم الى والدي لتخطبني .

– سأفعل ..

ومضت الايام دون أن أحظى بأمنيتي الغالية . وكنت أترقب كل مساء قدومه الى بيتنا ليقابل والدي حتى أخرج بغرامي من الظلام الى النور ، وأفاخر لداتي بخطيبي وشبابه الريان لانني بدأت أضيق بهذه اللقاءات المختلسة ، فنحن نسرق حقنا الطبيعي من المجتمع وأهلي .. وكنت أصدم حين أعلم أنه لم يأت .. وكلما ألححت عليه بالاسراع اختلق لي المعاذير . وكنت لسذاجتي أصدقه ، فأنا لا أقدر أن أتصور أن ذلك الذي منحته قلبي يخدعني .

وذات يوم كنت في زيارة لصديقتي صباح .. وهي شابة جميلة في مثل سني انقطعت عن الدراسة ، وفرغت الى شؤون البيت . وفجأة لمحت في يدها أسورة ذهبية لها رأس أفعى ، واختلجت .. انها أسورتي التي أهداها لي خالي في عيد ميلادي الماضي .. وكدت أصرخ .. أنى لك هذه ؟ وخشيت الفضيحة ، وتكلفت الابتسام والهدوء ، وقلت : ما أجمل هذه الاسورة .. هل أستطيع أن أراها ؟ وانتزعتها من يدها وقدمتها لي .. وتأملتها .. لقد كان الحرفان الاولان من اسمي منقوشين عليها . وغام بي الظلام .. غير أنني غالبت ثورتي ، وقلت : من أين أشتريتها ؟

– قدمها لي خطيبي .

– هل أنت مخطوبة ؟

– تقريبا .

– ماذا تعنين ؟

– لا بأس من مصارحتك لانك صديقتي الحبيبة ..

والتقطت أنفاسها ، ثم استطردت : تعرفت على شاب جميل .. رائع الصورة اسمه هاني .. وتبادلنا الحب ، وقدم لي هذه الاسورة الجميلة ، وهو في طريقه ليخطبني ..

وانسحبت الى البيت ، وفؤادي يتفطر من الاسى .. فقد استنارت بصيرتي ، وعلمت أن هذا الحبيب الذي اصطفيته مخادع .. يعرف كيف يتسلل الى قلوب العذارى البريئات اللواتي تعوزهن التجربة ، ويتقبلن كل شيء بطهر وبراءة .. ودوت بي نقمة شديدة عليه .. وانتظرت حتى لاح الصباح ، وأسرعت الى الهاتف ، وحددنا ميعادا للاجتماع .. ولما وقع نظري عليه شعرت باشمئزاز ، وتمنيت لو أنشبت أظافري في عنقه لاريح الناس من آثامه ..

وصحت : متى تخطبني ؟

– عندما تريدين .

– وأين مجوهراتي ؟.

– بعتها لاقدم لك علامة الخطوبة ..

– أنت كذاب .

– لا أحب المزاح .

– وصباح ؟..

واصفر وجهه ، ولكنه ما لبث حتى تمالك وعيه ، وقال : ماذا تعنين ؟.

– صباح التي أعطيتها أسورتي ..

وفر لونه ، ورجف جسده ..

وصحت : اذن .. كنت تخدعني .

– أبدا .. أقسم لك ..

وقاطعته : لا تقسم . ان كذبك واضح . والحمد لله انها جاءت سليمة .

– أنا .. أحبك ..

– اخرس . لماذا فعلت بي هذا ؟.

وعربدت ضحكته فاجرة .. وصاح بلهجة مرحة: ولماذا لا أفعل هذا ؟. ان الفتيات كثيرات .. وكلهن جميلات .. وببعض عبارات معسولة ، وكلمات منمقة أتسلل الى قلوبهن ، وأفيد منهن المال والمتعة ..

وأطبق علي ظلام شديد .. ورنت يدي على وجهه تصفعه ، وبصقت عليه ، وأسرعت بالذهاب .. وضحكته اللئيمة تطن في أذني .

وأغلقت قلبي دون كل هذه السفاسف ، وواظبت على دراستي حتى جاء نصيبي ، واختار لي والدي الزوج الصالح الذي سعدت به ، ووجدت عنده الحب الحقيقي، والحنان ، والسمو .

لينا

شعر ..

حامد حسن

جارتنا لينـا ، ولينـا ، والاب
جمعتنا غربة الدار ، وقد
وعلى أنمل لينـا ، وفمي
نزل الصيف ضلوعي ، فدمي
عضني الجوع ، وكرمي حافل
وأرى الكوثر يجري ، وأنا
شفتي تستنزل الشعر ، ولا
فحكينا ، وحكايات الهوى
قلت : من أين ؟ فقالت : هل ترى
أنـا من (يافـا) من الارض التي
جوها عطر ، ونور ، والثرى
أنا بنت الحقد ، ما للحقد لا
انني أجتر عاري ، وأبي
يغرق الايام في الخمر ، وقد
يخجل العار اذا قيس بمن
حلفوا بالقدس ، أنـا في غد
ويل أم الارض ، ويل الارض ان
هؤلاء الصيد اخواني ، فقل
أوما يعذر قوم نهدوا ؟؟
عطل الفتح مذاكيه !! فان
وجرى كالنور دمع ، جمدت

وصديقي ، وأنـا ، والادب
يؤنس المغترب المغترب
جلجل الناي ، وجن القصب
لهب ، والارض حولي لهب
وعلى مرمى يدي العنب
أظمأ الدنيا ولا اقترب
يتأبى ، وشبابي عزب
لم تحم الا عليها الريب !!
حرجا ؟ ان قلت : لا انتسب
نزل السخط بها ، والغضب
كله ، كل ثراها ذهب
يتنزى عارما ؟؟ لا يثب ؟؟
ما أبي ؟؟ ان ابي يحتطب
يشرب الحان ، ولا يضطرب !!
غصبت أرضهم ، واغتصبوا
نرجع القدس .. ولكن كذبوا
هدرت أشعارهم ، والخطب
من بنوا أمك ؟؟ قلت : العرب
ومشوا في الجمر حتى تعبوا
حليت هوج المذاكي ركبوا
حبب منه ، وسالت حبب

الأمثال العامية

بقلم الدكتور : أنيس فريحة

هل استرعى انتباهك ، وأنت تحادث قرويا أو فلاحا ، كثرة استشهاده بالمثل ؟ ألم تلحظ انه عندما كان يرسل أقواله وأحكامه وافتراضاته كان يدعمها بالامثال، فيقول مثلا : « الا يقول المثل كذا وكذا .. ؟ » أو « أما جاء في الامثال كيت وكيت .. ؟ » وان كنت من قراء التوراة لذكرت مواقف كثيرة فيها استشهاد بالمثل ، لان المثل ، عند القدماء ، وعند القروي في عصرنا هذا ، يتضمن فلسفة واختبارا وحكما يصح الركون اليه . يشهد على صحة هذا قول العامة عندنا « المثل ما قال شي كذب ! » .

عندما كنت اعنى بجمع مادة لغوية من عامة الشعب لدراسة اللهجات اللبنانية العامية [1] استوقفتني هذه الكثرة من الامثال . اذ تجمع لدي مجموعة يزيد عددها على الخمسة آلاف مثل . وانت تسلم معي ان هذه ذخيرة لغوية ثمينة تحتفظ بها عامة الناس ، واظنك تشاركني الرأي في أن في جمعها ونشرها ودراستها فوائد لغوية وتاريخية جمة ، فضلا عن المتعة والطرافة في دراستها من ناحيتها النفسية الروحية . ونحن على وشك نشرها ، لانها جزء من أدبنا ، لان الكثرة الساحقة من الامثال العربية التي حفظها لنا الادب العربي (كالمجموعة الضخمة التي حفظها لنا الميداني) قد ماتت . ماتت لان الحياة نبذت الكثير منها ، وما تنبذه الحياة لا رجعة له . اما الامثال التي احتفظت بها الحياة ، الامثال التي تتصف بقوة الاستمرار ، أو الخلود اذا شئت ، فهي هذه الامثال العامية التي تكون جزءا من كلامنا وتفكيرنا . وجدير بنا ان نوليها عنايتنا ، لا سيما أن الحياة العصرية تعصف بالقديم وتبدل كثيرا من أساليب العيش والتفكير ، ولن يمر وقت طويل قبل ان يصبح كثير من هذه الامثال نسيا منسيا .

قام غيرنا بجمع كثير من هذه الامثال ، منها مجموعات صغيرة نشرت اما في مجلات واما في كراريس ، ومنها مجموعات كبيرة مثل مجموعة المنسنيور فغالي . ولكن نعتقد ، ونقول هذا بكل احتشام ، ان ما تيسر لنا جمعه يفوق عدا واستقصاء كل ما نشر أو جمع من قبل في بقعة واحدة هي لبنان . وسنقابلها بما تيسر لنا جمعه من البلدان العربية الاخرى لنرى مدى انتشارها وشيوعها في العالم العربي .

ولن نتمكن في مقال محدود كهذا أن نوفي الموضوع حقه ، ولكننا سنجمل متوخين اثارة اهتمام الادباء . وتسهيلا للبحث سنقسم الموضوع الى ست نقاط :

١ ـ تحديد المثل .
٢ ـ أصل المثل أو نشأته .
٣ ـ محتويات الامثال وتصنيفها .
٤ ـ الاسلوب الادبي الذي يصاغ فيه المثل .
٥ ـ شيوع المثل .
٦ ـ النفسية التي يعكسها المثل .

أولا ـ تحديد المثل

ليس وضع تعريف للمثل من الامور السهلة . وقد يكون منشأ الصعوبة سهولة مفهوم المثل وتنوع ما يحتوي عليه المثل ، اذ تتوافر في المثل بعض عناصر

(١) راجع معجم الالفاظ العامية في اللهجة البنانية . من منشورات الجامعة الاميركية ، سلسلة الدراسات الشرقية الحلقة التاسعة عشرة .

الشعر ، وفيه شيء من الحكمة والفلسفة والاختبار اليومي ، وفيه هزء وسخرية وخرافة وتدين وكفر ، وضروب أخرى من المتناقضات التي يصعب معها صوغ تحديد ينطبق على جميع الامثال . وهنالك صعوبة أخرى وهي أن كثيرا من هذه الاقوال هي أقوال عادية ، نسبة لكثرة استعمالها ، تدرجت الى أن وصلت الى مرتبة المثل. وهناك كثير من الامثال هي في الواقع كنايات واستعارات وتشابيه . ولكن هذه الصعوبة لم تحل دون وضع تعاريف متعددة وضعها الذين عنوا بالمثل ودراسته نذكر بعضها :

المثل قول مأثور عام .

المثل مادة غزيرة في كلمات قليلة .

المثل حكمة مصوغة في جملة فيها نكتة أو تشبيه أو استعارة .

المثل حكمة كثيرين في جملة قصيرة تفوه بها بليغ أو صاحب بديهة .

المثل جملة شائعة ممهورة بالطابع الشعبي وتحتوي على حكمة أو على اختبار انساني . وعندنا ان تقرير الميزات أو العناصر الادبية واللغوية التي يجب أن تتوافر في الجملة لتصبح مثلا سائرا أجدى وأقرب الى الطريقة العلمية من محاولة وضع تعريف شامل يصدق على بعض الامثال ولا يصدق على أخرى . ولكي يصبح القول قولا مأثورا تتمثل به العامة والخاصة يجب أن تتوافر فيه الميزات الاربع التالية :

آ ـ ايجاز اللفظ وحسن سبكه .

ب ـ يجب ان يحتوي على حكمة مبنية على الاختبار الانساني العام .

ج ـ حسن الاصابة سواء كان ذلك في النقد أو العظة ، في الجد أو الهزء .

د ـ الشيوع أو الشعبية .

وهذا يتفق الى حد بعيد وقول ابراهيم النظام المعتزلي في المثل . قال : في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام ، ايجاز اللفظ ، اصابة المعنى ، حسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة .

ثانيا ـ أصل المثل ونشأته

لا نستطيع أن نرد كل مثل الى قائله أو واضعه ، اذ أن التاريخ لم يحتفظ بجميع أسماء الذين أرسلوا هذه الاقوال التي أصبحت فيما بعد أمثالا . يستثنى عدد قليل نسبيا من الامثال الادبية التي نعرف قائلها بالضبط . فان شكسبير مثلا له أقوال عديدة ذهبت مثلا ، وكذلك المثل المشهور « اعرف نفسك » فانه يوناني الاصل ، يعزى الى أحد الفلاسفة السبعة الذين اليهم يعزى منشأ الفلسفة . وقيل انه كان مكتوبا على معبد أبولو في دلفي. ثم هنالك أمثال التوراة ، وهي عديدة وقديمة ولا يزال قسم منها حيا على السنة الناس . والتوراة تعزوها الى أناس معينين . فسفر الامثال لسليمان الحكيم وسفر الجامعة لابن داود . ولكن أثبت التدقيق التاريخي انه لا يمكن ان تكون هذه الامثال من وضع سليمان أو غيره بل هي من وضع أناس عديدين ، وترجع الى أزمان مختلفة ، وتمثل أطوارا ثقافية مختلفة . على كل فان التقليد يعزوها الى أشخاص معروفين .

وعندي ان المثل يرجع الى انسانين :

١ ـ الانسان العادي الذي أعطانا الامثال الشعبية ، أو الامثال العامية (مقارنة لها بالامثال الادبية التي سنأتي على ذكرها) . وهي مختثر الاختبارات الانسانية العادية الواقعية . ومثال على ذلك : « عصفور في اليد خير من اثنين (أو ثلاثة أو عشرة أو مئة) على الشجرة » . فهذا قول يعكس لناتفكير الرجل الواقعي الذي قلما يسترسل في التفكير النظري ، وقلما يرتفع الى مستوى عال . هذا الرجل يأخذ بالواقع ، وقد علمته الحياة ـ وهو متأكد من صحة تعليمها ـ ان عصفورا في يده خير من عشرة على الشجرة .

ولكن قولنا هذا لا يعني أن هذا الرجل العادي ، عديم الفكر ، قاصر الادراك ، غافل لا تربكه متناقضات

الحياة ، ولا تحيره أسرارها وغوامضها • كلا • هو يفكر في الحياة ومشاكلها كما يفكر الفيلسوف المتروي• ولكن الفارق بينهما في نوعية الاحكام والتعليلات التي تصدر عن كل منهما • فالرجل العادي يلاحظ أن زيدا من الناس أثيم شرير ، لكنه ينعم بخيرات الارض وأطايبها • ويلاحظ أيضا أن عمرا من الناس خير دين صاحب تقوى وايمان ، ولكنه يشقى ويعاني مرارة الحرمان • فيحار ، كما حارت الاجيال قبله ، فيثور ويكفر ويقول : «صوم وصلي بتركبك القلة ! »

وكذلك ينظر الى الحياة السياسية والاجتماعية المضطربة ، والى تفشي الظلم ، فيرفع قلبه بالصلاة • ولكن يخيل اليه ان صلاته لا تستجاب فيقول متأففا : « حاكمك وربك ولمين بدك تشكي امرك ؟ » •

نحن لا نقول ان الفيلسوف يستطيع ادراك هذه الغوامض التي تحير عقول العامة ، ولكننا نلاحظ أن أحكامه وتعليلاته تتصف بشيء من التبصر والروية •

كثير من هذه الامثال الشعبية العامية التي هي من نتاج الرجل العادي خلو من عناصر الشعر • هي سرد حقائق بطريقة نثرية مباشرة • وقد تدرجت الى مراتب المثل بفضل شيوعها واطلاقها في مناسبات كثيرة ، اضف الى هذا نظر العامة اليها ، فهم يرون في الامثال حقائق وقوانين يصح اتخاذها دستورا في الحياة والسلوك • وتتميز الامثال الشعبية بالكثرة والتنوع • فانها تتناول جميع نواحي الحياة الانسانية ، وتعبر عن جميع العواطف الانسانية والخوالج النفسية •

٢ ـ الانسان المفكر ، الفيلسوف المتروي الذي يحاول تعليل الظواهر • هذا الرجل يفكر ثم يخلص الى قول يضمنه رأيه أو حكمه أو اختباره في لغة محبوكة مصقولة ، وأحيانا في لغة شعرية • هذا الرجل اعطانا الامثال التي نسميها الامثال الادبية أو الامثال الكلاسيكية وأفضل نماذج من هذه الامثال هي تلك التي حفظت لنا في التوراة ، وفي الادب الكلاسيكي القديم ، الاغريقي واللاتيني والعربي •

ولكن يجب ألا يتبادر الى الاذهان ان الانسان العادي الذي أعطانا الامثال الشعبية العامية ، والحكيم المتروي الذي أعطانا الامثال الادبية يجلسان الى منضدة ، وقلم الواحد منهما بيده يدونان ما يعن لهما من الاقوال الحكيمة • هذا بعيد عن الواقع • يرسل الرجل العادي أقواله أو أحكامه ـ التي تصبح أمثالا ـ عند مناسبة ما ، عند الحزن والفرح ، عند الغيظ والايناس ، عند الخيبة والامل ، عند الراحة ، وعند الاعياء • وكذلك الحكيم يجب أن يمر في اختبار ما ، أو يجب ان يلاحظ أمرا ما ، فيفكر فيه طويلا ثم يرسل حكمه قولا يصبح فيما بعد مأثورا • اذا لنشوء المثل يجب أن يكون هنالك حوادث أو ظروف توحي المثل ، نجملها :

١ ـ الكثرة الساحقة من الامثال العامية تقرير حقائق أو سرد حقائق • وهذه الحقائق يتوصل اليها الرجل العادي عن طريق الاختبار والتأمل مثل « كل يموت » عيش كثير بتسمع كثير » وقسم كبير منها ايجابات أو تعبيرات عن عواطف نفسية أو عن ثورات نفسية • ويلاحظ أن هذه الاقوال نثرية خالية من عناصر الشعر ، ينقصها التشبيه أو عمق التفكير •

ب ـ كثير من هذه الامثال مبني حول قصة واقعية أو حادثة معروفة في التاريخ • أقدم مثل مدون هو الوارد في سفر صموئيل الاول ١٠ : ١٢ و ١٩ : ٢٤ « أشاول بين الانبياء ؟ » هذا مثل مبني حول حادثة معينة ، فذهب القول مثلا لا يزال على السنة الناس الى يومنا هذا • ويعتقد فريتاغ (الذي ترجم أمثال الميداني الى اللغة اللاتينية) ان أكثر الامثال العربية نشأت حول حادث معين • ولكن يجب ان لا ننسى أن أخبار هذه الحوادث وصلت الينا مشوهة أو بشكل خرافة •

ج ـ هنالك أمثال كثيرة بنيت على خرافة أو أسطورة أو حكاية من حكايات العامة • « تمخض الجبل فولد فارة » هذا مثل يوناني قديم وكذلك « باع جلد الدب قبل أن يصيده » • وفي الامثال العربية والغربية كثير من الامثال التي ترد الى خرافات ايسوب • وتمثيلا

على هذا نذكر الحكايات التي يروونها عن أصل الامثال العامية الثلاثة :

« عنزة ولو طارت »

« ضربة المعلم بالف ولو كانت من خلف »

« على هالحمص ما في عيد »

عنزة ولو طارت

يقولون ان راعيين اختلفا في شبح أسود في التل المقابل • قال أحدهم : ربما هي عنزة تخلفت عن القطيع • قال رفيقه : لا بل هي شوحة • فأجابه : لا يمكن أن تكون شوحة ، هي عنزة • واشتد الجدل واذا بالشبح يطير ، فقال له رفيقه : ألم أقل لك انها شوحة ! قال له صاحبه : كلا هي « عنزة ولو طارت ! »

ضربة المعلم بالف ولو كانت من خلف

مهما اختلفت الروايات فهناك شبه اجماع على ان المثل نشأ حول معلم بناء ماهر • يقول يوسف رزق (جامع الامثال اللبنانية في مخطوطة سماها البارجة في الامثال الدارجة) انه المعلم الذي بنى جسر نهر ابراهيم • يروى ان المعلم « حرد » قبل انهاء العمل ببضعة أيام ولازم بيته • وعندما أرادوا أن ينزعوا القالب من تحت القنطرة فشلوا ولم يعرفوا كيف يجب ان يتدبروا الامر • وصل الخبر الى المتصرف الذي بعث بدوره موظفا كبيرا يرجو المعلم أن ينهي العمل • قبل المعلم واتى وأخذ مطرقة وأدار وجهه الى جهة معاكسة وضرب حجرا مفتاحا للقوس فحل القوس على أتم وجه وقال لهم « ضربة المعلم بالف ولو كانت من خلف » •

على هالحمص ما في عيد

وتدور القصة حول كاهن امي بسيط يستعين على تذكر أوقات الاعياد بوضع كمية من حبوب الحمص (طبعا القصة تختلف من مكان الى آخر) • يقولون انه قبل عيد الفصح دفع بثوبه الى خادمه لاصلاحه ، فوقع الحمص بيد الخادم فأكله • ثم عاد فتذكر ان الكاهن ربما عنفه على أكله الحمص • فأخذ قبضة من الحمص ووضعها في جيب الثوب • وكان الفصح على الابواب • ولكن في الاحد التالي وقف الكاهن يتلو اعلانات الكنيسة ومواعيد الصلاة والاعياد • قال لهم يا أولادي المباركين « على حساب الحمص ما في عيد » •

د ــ قد يكون أصل بعض الامثال احاجي او أجوبة على أحاج • فقد جاء في سفر الامثال ٢٢ : ١ « الصيت أفضل من الغنى الكثير ، والنعمة خير من الذهب والفضة » وعندي ان هذا جواب للسؤال : أي شيء أفضل من الغنى ، وأي شيء أفضل من الذهب ؟ وفي الامثال العامية كثير من الامثال التي تشبه الاحاجي أو المصوغة على نمط أحجية ، أو بشكل سؤال وجواب • « قال له شو أحلى من العسل ؟ قال خل بلاش ! » « مين ادرى بحالك ؟ ربك وجارك • » « مين أقل عقل (اجن) الي زرع السطح أو الي قدم البذار ؟ » •

ه ــ كثير من الامثال يرد الى الآداب الكلاسيكية ــ الاغريقية ، اللاتينية ، العربية ــ والى التوراة ــ سفر الامثال والجامعة وابن سيراخ والعهد الجديد ــ وانك اذا قابلت الامثال العامية التي ترد الى التوراة والى الادب الكلاسيكي لوجدت فرقا في صوغ المثل ، غير ان الروح والمعنى واحد في الاثنين • مثال على هذا « ايها الطبيب طبب نفسك » (لوقا ٤ : ٢٣) « صعب عليك ان ترفس مناخس » (أعمال ٢٦ : ١٤) ويقابله في العامية العين ما بتقاوم مخرز • « طب الجرة على تمها بتطلع البنت لامها » وهو مثل قديم ورد في سفر حزقيال ١٦ : ٤٤ • ويدخل في هذا الباب الامثال المترجمة • « الي بيته من قزاز ما بيراشق بالحجارة • » يشعرنا هذا المثل انه غير عربي ، والواقع انه اسباني واصله : الذي في بيته نوافذ زجاجية لا يرمي حجارة • وهو أقرب الى المعقول اذ لا يوجد بيوت زجاجية يسكنها الناس •

وهناك أمثلة على الامثال الواردة في الادب الكلاسيكي القديم ولها مقابلها في الامثال العامية « عين لا تقشع قلب لا يوجع » « اضرب حديدا حاميا » « عين المحب عمياء » « الي بيجي هيك بيروح هيك » أو « الي

ما بتتعب فيه الايادي ما بتحزن عليه القلوب » « اختر أهون الشرين » أو « الكحل أحلى من العمى » . وقد لا تكون الترجمة حرفية ، ولذا كان التيقن من أصل المثل يتطلب كثيرا من الروية والبحث الدقيق .

ويجب أن نذكر ان هذه الناحية من دراسة المثل كثيرة المزالق ، اذ قد يكون المثل الذي نتوهمه مترجما عن لغة أجنبية أصيلا في اللغة ، وقد يكون وروده في لغتين مختلفتين وفي وسطين ثقافيين مختلفين من قبيل الصدفة ، أو من قبيل توافق الفكر الانساني واختباره . فالمثل الاوربي المشهور : « عندما تكون في روما افعل كما يفعل أهل روما » له مقابل عندنا وربما عند كثير من الامم ، أي يجب على المرء أن يلائم أموره وأحواله للبيئة التي يعيش فيها . نقول : « عاشر القوم أربعين يوم ، يا بتصير منهن يا بترحل عنهن » وسمعت مثلا آخر عجيبا وهو « اذا دخلت قرية وشفت أهلها عم يعبدوا العجل ، حش واطعمه ! » .

و ـ قد يكون المثل بيت شعر او جزءا منه (الصدر أو العجز) . وأكثر الامثال التي جمعها الميداني موزونة . وفي الامثال العامية كثير من الامثال الموزونة ـ طبعا أوزان الشعر العامي ـ وقسم منها أبيات من الشعر مثل :

قالوا شرب الجرة بيعفي الرقبة

قالوا حيلة لل ما عنده بريق

وكلمة « عفى » معناها غلظ وثخن واظنها سريانية الاصل من « عفا » .

ز ـ المثل يولد المثل . وفي الامثال العربية القديمة مجموعة من الامثال مصوغة على نمط مثل آخر . فقد قالوا : أعرى من اصبع ، واعرى من مغزل ، واعرى من الايم ، واعرى من الراحة ، واعرى من الحجر الاسود . وقالوا : اسرع من الريح ، واسرع من البرق ، ومن الجواب ، ومن الاشارة ، ومن اللمح ، ومن الطرف ، ومن لمح البصر ، ومن رجع الصدى ، ..الخ وقالوا أشهر من نار على علم ، وأشهر ممن قاد جملا ، ومن الشمس ومن القمر ، ومن البدر . وانت ترى ان أصل هذه الامثال مثل واحد قاله أحد الناس فأتى بعده من وضع امثالا قياسا عليها .

ثالثا ـ محتويات الامثال وتصنيفها

تتناول الامثال جميع نواحي الحياة الانسانية . والمشكلة التي تجابه دارس الامثال مسألة تصنيفها . هنالك من يتبنى طريقة تصنيف الامثال بالنسبة الى أشياء أو ذوات معينة ، كأن يأخذ الامثال التي تدور حول البقر ، أو الذيب ، أو البحر ، أو المطر أو الشاب أو العجوز .. الخ وهذا تصنيف لا حد له ، اذ قلنا ان الامثال تتناول جميع نواحي الحياة الانسانية . ويرى بعضهم ان تصنيف الامثال يجب ان يكون على أساس فكر عامة ، أو مواضيع عامة ، لان هذا اجدى وانفع ، ولا سيما عند الذي يعنى بدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية لشعب ما . وعندنا ان نصنف الامثال الى ٨ فئات أو أبواب (وقد يرى بعضهم ان يزيد في عدد الابواب) وهي :

آ ـ باب الحقائق العامة أو الاحكام العادية . وقد المعنا لهذا النوع من المثل ، وقلنا انه من نتاج الرجل العادي . وعدد الامثال التي تقع في هذا الباب كبير جدا . مثال على هذا النوع : « حمار طيب ولا فيلسوف ميت » أو « كلب داير ولا سبع مربوط » « ما بعد الضيق الا الفرج » « العجلة من الشيطان » .

في تقرير هذه الحقائق ، وفي ارسال هذه الاحكام تظهر نفسية الرجل العادي واخلاقه وما ينطوي عليه من كرم وبخل ، من نجدة ونخوة ، من تقاعس وأنانية ، من تدين ومن كفر .

ب ـ باب « الكليشات » أو « الحواضر » واعني تلك الاقوال التي يلجأ اليها المتكلم في مناسبات خاصة . وعددها كبير جدا . مثلا « حماتك بتحبك » تقال في مناسبة خاصة . « من خلف ما مات » ، تقال لتعزية أهل الميت . « وجهك أو ضوء القمر ؟ » تقال مداعبة لمن غاب عن الناظر طويلا ثم ظهر فجأة . « الناس بدارك والمفتاح

بزنازك » تقال لرجل رؤي في السوق ، بينما كانت جماعة من الناس تقصد زيارته . « الطبيب الله » أو « الحارس الله » تقال لرجل عنده مريض عجز الاطباء عن مداواته فيقال له « سلمها لالله » أو « الطبيب الله » . وانت ترى أن هذه ليست بامثال بالمعنى الضيق ، بل أقوال تدرجت الى مرتبة المثل . ولم نجد اسما لها أفضل من كلمة « كليشات » لان استعمالها أو اللجوء اليها تفرضه مناسبات خاصة . فهي من نوع الجمل الحاضرة أو الجاهزة . ومن هذا القبيل « المي ما بتمرق على عطشان» « من مالك يهدى لك » « الشكوى لغير الله مذلة » .

ج ــ باب العادات والتقاليد : ويقع في هذا الباب كثير من الامثال التي تعكس نواحي مختلفة من الحياة الاجتماعية . ودراستها ممتعة جدا ، ولا سيما في مثل هذه الفترة من حياتنا ، فترة انتقال من حياة العصور المتوسطة الى حياة القرن العشرين . ولذا نشعر بالحاجة الى تدوين هذه الامثال قبل ان يقضي عليها هذا التطور السريع في الحياة الاجتماعية .

د ــ الخرافات والمعتقدات : ويقع في هذا الباب كثير من الخرافات والمعتقدات التي تحدرت الينا من عصور بعيدة ومن ثقافات متنوعة ، وربما من اعراق بشرية مختلفة . ودراستها تعكس لنا حقائق تاريخية ممتعة .

هـ ــ باب الشرع والقوانين : ويقع في هذا الباب أمثال مستمدة من المسيحية ومن الشرع الاسلامي ومن اليهودية ، ومن العرف . ونلحظ هنا ان قسمامنهايعكس الحياة الحضرية ، وقسما آخر يعكس بعض نواحي البداوة .

و ــ باب السخرية والهجو : ويتناول هذا الباب الحماة والكنة والمجنون والاعور والاعمى والبخيل والطاعن في السن رجلا كان أو امرأة وفيها يظهر كثير من القسوة والتصلب في العاطفة . وفي دراستها متعة اذ تعكس لنا شيئا عن الاخلاق العامة .

ز ــ الطقس : يقع في هذا الباب الامثال التي تعكس لنا تعليل العامة للاحوال الجوية ، والمظاهر الفلكية ، والفصول والبرد والحر . وهذه كثيرة ومتنوعة، وفي كثير منها ملاحظات قيمة هي نتيجة اختبار السنين الطوال وفيها كثير من الاوهام التي لا تقوم على شيء من الصحة .

ح ــ باب الطب : يقع في هذا الباب نصائح ووصفات طبية ، مثل « آخر الدوا الكي » « تغد وتمد ، تعش وتمش » .

رابعا ــ الاسلوب الادبي الذي يصاغ فيه المثل

قلنا سابقا ان كثيرا من الامثال أقوال نثرية ، سرد حقائق بطريقة مباشرة . وهذه خاء من خصائص الشعر او خصائص النثر الفني . غير ان هنالك فئة من الامثال السائرة الخالدة ، ونعني تلك التي قد صيغت بقالب مؤثر هو القالب الشعري ، هي تلك التي لها وزن او نغم ، او تلك التي فيها استعارة جميلة ، أو تشبيه موفق أو ايماء لطيف ، أو جناس أو طباق أو تورية . وبكلام آخر المثل الذي يروق لنا هو المثل المصوغ بقالب جميل مؤثر . اعتبر هذه الامثال من وجهة الاسلوب الفني :

« بعيق الجدي ولا سواد العنقود » ويقصدون ببعيق أو فعي الجدي مقدم الربيع ، وللربيع بهجة ينتظرها الناس . وسواد العنقود نذير بأن الصيف سيولي الادبار ، وفي انصرام الصيف شيء من الكآبة .

واذا أرادوا أن ينصحوا شابا مزمعا على الزواج من فتاة غريبة ، بطريقة شعرية قالوا « زوان بلادك ولا قمح الصليبي » أو « دور الدورة ولو دارت ، خذ أصيلة ولو بارت » وكذلك « غلت الحبة ما بترخص الدقون » أي أن الكبير كبير ، ويحافظ على كبره وكرامته وكرمه وان قل الرزق . « طحان ما بيغبر على كلاس » أي انسان مشبوه ملوث لا يستطيع أن يعيب اخر على شاكلته « الي بغربل الناس الناس بتنخله » ولا يحتاج الى تعليق. وكذلك المثل المشهور « الي تحت باطه مسلة بتنخزه » « امه بصلة وبيه ثوم ، وجاي يسأل منين ريحة الثوم ؟ » وهو موزون . ورغم ان تشابيهه عادية فانه بليغ .

« طنجرة ولقيت غطاها » يقال في رجل تزوج امرأة تشبهه خلقا وخلقا أو عن رجل يصاحب نظيره . « عند ضيقة النفس خذ لك هالظرف انفخه ! » والصورة صورة رجل مصاب بالربو ، وفي ابان النوبة يأتيه ثقيل سمج يقول : من فضلك خذ انفخ لي هذا الظرف !

خامسا ـ شيوع المثل

الامثال عامة لا يخلو منها أدب ما ، حتى ان في لغة القبائل المتأخرة ، كما دونها لنا الرحالون والمبشرون، ذخيرة كبيرة من الامثال . وكان المثل في القديم يحتل مكانة رفيعة . يدل على هذا أدب التوراة ، فان للمثل هنا أهمية عظمى في التعليم والارشاد والسلوك . وللمثل أثر بعيد الغور في عقلية العامة . فانهم يؤمنون بصحة الحقائق التي تتضمنها الامثال ، ويعتقدون أنها قواعد وقوانين يصح ان تتخذ مقاييس في السلوك والتصرف . وكان يكثر في الزمن القديم ورود المثل في محادثات الناس وفي كتاباتهم . ولكن أخذ المثل في الآونة الاخيرة يفقد المكانة التي كان يتمتع بها . وعندنا ان السبب هو التقدم العلمي والثقافي . اذ كلما كان نطاق التفكير ضيقا ، وكلما كانت المادة اللغوية والادبية محدودة ، أكثر الرجل من اللجوء الى الاستعانة بالمثل . ولكن عندما يتحرر المرء من هذه العلة ، من هذاالقحط اللغوي، يعتمد على بيانه وعلى طرقه الخاصة في التعبير والاقناع والجدل وللتأكد من صحة هذا الزعم عليك ان تلاحظ الفرق بين أحاديث الطبقة المثقفة وبين أحاديث أهل الريف ، وبين أدبنا القديم وأدبنا الحديث فتجد ان المثل أخذ يفقد مكانته في المخاطبات وفي الكتابة .

سادسا ـ النفسية التي تعكسها الامثال العامة

اذا كانت الامثال مرآة تنعكس عنها نفسية الامة ، كما تزعم بعض المدارس اللغوية ، فاننا قوم على كثير من التناقض والفوضى في أخلاقنا وعاداتنا . هذه المشكلة شائكة ، لان تصوير خلق شعب ما بواسطة درس ادبه ، أي عن طريق الاستنتاج اللغوي ، عرضة لمزالق جمة . وعلينا ان نحترس كي لا نقع في الاخطاء التي وقع فيها غيرنا عندما حاولوا الحكم على عقلية الشعب واخلاقه بواسطة دراسات لغوية .

الحقيقة انني في حيرة من هذه الامثال ، اذ أجد نفسي أحيانا ميالا للقول بأن أمثالنا تمثل أخلاقنا ، وأحيانا أخرى أجد نفسي مترددا في قبول هذا الرأي . ولا غرو في ذلك ففيها الخير والتقوى ، وفيها الشر والكفر ، فيها النجدة والرحمة ، وفيها الجبن واللؤم ، فيها الايمان بالقضاء والقدر ، وفيها الايمان بحرية الارادة ، فيها الاستسلام المطلق وفيها التمرد ، فيها المحبة والالفة وفيها البغض والنفرة ، فيها الكرم والتضحية ، وفيها البخل والانانية ، وكنت أحب أن أدلل على كلامي هذا بسرد عشرات الامثال التي تحتوي على هذه الفضائل والرذائل ولكن القارىء يعرفها كما أعرفها أنا .

لا يستطيع امرؤ أن ينكر أن أمثالنا هي تعبير عن حياتنا ، أو استجابات لما لابس ويلابس حياتنا من اضطراب في الحياة الروحية ، وقلق في الاحوال المعاشية . هي الى حد بعيد صورة لاخلاقنا وعاداتنا . ولكنني أريد أن أبعد فأسأل نفسي هل هذه الفوضى في الاخلاق ، هل هذا التناقض في المبادىء ، صفة ملازمة لحياتنا ؟ وبكلام آخر صريح ، هل يمكن أن يكون الشر والصلاح ، والكفر والتدين ، والبخل والكرم ، والنجدة والنفرة ، وما هنالك من متناقضات ـ أقول ـ هل يمكن ان تكون هذه جزءا من حياتنا ، جزءا من كياننا الروحي أم هي عوارض طارئة ، عوارض فرضها التاريخ ؟

نكون في مأمن من العثار اذا قلنا أن أمثالنا سجل للحياة المضطربة التي حييتها الاجيال الغابرة في هذه البقعة المقلعة . واحر بنا قبل ان نتخذ من المثل مادة لتصوير خلقنا أن نسأل :

أولا : هل المثل من وضع الناس كمجموع ، أو من وضع فرد في حالة نفسية ما ، أو في حالة فورة ما ؟ وهل من الضروري أن تمثل نزوة فرد أو فورته نزوات الامة وفوراتها ؟

ثانيا : هل أمثالنا نتاج مدنية واحدة ، نتاج ثقافة

سر حياتي

بقلم : الدكتور سامي الجندي

سر عذابي ، سر حياتي لم تنبس به شفتي لانسان •• أبتعد عن البشر ، أجلس في المقاهي البعيدة كي لا تفر من شفتي كلمة تدل عليه • اذا أجتمعت بأحد ثرثرت طويلا متشبثا بأبعد المواضع عنه خشية أن يغلبني الصمت الطويل فتبدر مني بادرة عنه •

هي وحدها تعرفه بكل تفاصيله •• تعرفه بدقة غريبة ، تحفظه جيدا لا تنسى من تاريخه حرفا واحدا•• لم تقل لي ذلك ولكني موقن بـه •• قدمت لها ذاتي عارية عري الطفل ساعة ميلاده •

* * *

رأسي فيه مائة مشروع فاشل •• أجر ورائي ألف خيبة ! ما أكثر العوالم التي بناها خيالي وانهارت عالما بعد عالم ! هي نفسها خيبة جديدة •

جئت المدينة عندما اقتلعت جذوري من القرية •• أنا شجرة لا جذور لها •• جئتها مع جمع غفير من العراة تتطلع الى الابنية العالية فتزوغ أبصارنا •• كلما جاءها منا قافلة جديدة ارتفعت البناية أعلى وامتد الشارع أطول، وصغر الانسان •• ازداد عدد سكان المدينة زيادة مريعة واختلط الغريب بالغريب حتى بات سكانها غرباء •

جئناها نتسكع من ظل الى ظل ، نحتمي من الشمس المحرقة •• نختبىء في زواياها فرارا من النظرات المدنية الشامتة أحيانا ، الراثية أحيانا آخر •• وجدنا أعمالا وبقينا في أعماقنا عاطلين عن العمل لاننا متسكعون فبني البناية ونمد الطريق فتتكرنا البناية ويتنكر لنا الطريق لان في عيوننا تراب القرية •

* * *

واحدة ؟ ترى ، اذا تصدى لها مدقق يحللها ، الا يرى فيها ترسبات مدنيات متعاقبة ـ سامية بدوية ، آرامية حضرية ، اغريقية لاتينية تركية مغولية ـ الم يكن لصراع هذه الثقافات والديانات ، الم يكن لهذه الحروب والفتوحات المتعاقبة من أثر عميق في تكوين هذه الامثال حتى يصح القول انها إنعكاس لهذا الصراع الثقافي والاجتماعي ؟

ثالثا : اليس للحياة الاجتماعية والسياسية من أثر في صوغ المثل وارساله ؟ وهل عرفت هـذه البقعة من الارض معنى الاستقرار ؟ هل نعمت في تاريخها بالطمأنينة؟ هل عرفت السلام والوئام ؟ هل عرفت المحبة ؟

أميل الى الاعتقاد ان الامثال هـذه تمثل استجابة الناس لتقلبات الحياة واضطرابها في الشرق • قد يقول قائل : لا تهمني الاسباب بقدر ما تهمني النتائج • اليست هذه الامثال تعبير الناس عما يلابسهم ؟ نعم ولكن هل هذه الفوضى الاخلاقية التي يعكسها المثل ملازمة لحياتنا ؟

هل هي من كياننا ، أم أننـا فريسة العوامل الجغرافية والاقتصادية والسياسية ؟ بكلام آخر لو انه قيض لنا ان ننشأ في بقعة غير هذه البقعة التي تصارعت فيها المدنيات والاديان ، هـذه البقعة التي كـانت ولا تـزال مسرحا لحروب طويلة ، حروب دامية ، حروب باردة خلقت في النفـوس القلق ، والجبن ، والتخفي ، والحذر ، والتدين ، والكفر ، الى ما هنالك من تناقضات تظهر في المثل ، أقول لو كنا قد نشأنا في غير هذه البقعة أكانت أمثالنا هي هي ؟ الموضوع شائك ويحتاج الى دراسة أعمق وأسهب ، وأكون ممتنا اذا أثارت أسئلتي الفضول عند المتأدبين فيحاولون الاجابة عليها • لانني ـ كما قلت ـ في حيرة من أمرها لا أدري معها اذا كنا حقا على هـذه الفوضى ، أم أن هذه الفوضى تشيع في حياتـنا نسبة لما يلابس حياتنا من فوضى فكرية وروحية •

الدكتور أنيس فريحه

لم تجدني غريبا هي لان في أعماق عينيها بصيصا لغبار قروي •• لزوبعة صحراوية أريد أن أعود للقرية لاني تعبت •• أريد أن أجد لجسدي مأوى يلجأ اليه•• أحس الضنا في كل مفاصلي •• قد أموت •• وبي حنين الى أن يأكلني دود القرية لا دود المدينة •

أرى درب القرية زاهيا بالورد رغم أنه لم تنبت فيه منذ زمن بعيد حتى عوسجة شائكة ولكنها تدفعني عنه ، تريدني عملاقا كبيرا بين غرباء صغار ، لان القرية نضبت لا يمكن أن أكبر فيها •• تريدني أن أملك المدينة كلها، أن أصبح ذا تاج وأنا ذاهل • أحس اذا كنت لديها أن التاج مني قريب فأمد يدي • لكنها لا تقبض الا على السراب •• أريد أن أعود للقرية لاني فيها انسان حتى ولو صغرت •

* * *

بت في المدينة ذا طابق يتكدس فوقه ثلاثة أخر فيترنح مثقلا على سطح الارض •• قال لي الطبيب : « ابنك بحاجة لنور الشمس ! » وكأني بها تدخله منذئذ بمقادير وتغادره عجلى تتقزز من الرطوبة المسترخية في زواياه •

بيتي نظيف أبحث فيه عن ذرة من غبار قروي فلا أجد • كل ما فيه يذوي بطيئا ، الحياة فيه ذبول مستمر، مقاومة للموت • ابني وابنتي يعيشان في المنور كي لا يلوثهما غبار الطريق • يتسلل اليهما الهواء من بين الابنية المجاورة كلص يدخل مدينة محاصرة •

* * *

الجرس على الباب ! يدقه الزائر فيزعق في البيت• يخرج اليه ابني أو ابنتي ليبلغه أني غير موجود أو يبلغني أن فلانا بالباب يود زيارتي دقائق خمسا لا تزيد ولكن الدقائق الخمس طويلة في حساب المدينة •• كل من يدخل البيت يضايقني لاني أنا نفسي ينتابني احساس السمكة في علبة السردين عندما أدخله •• بت ذا طابق، بات من في البيت كائنات معلبة •

* * *

محمد نفسه قرع الجرس عندما دخل الى البيت• كنت غائبا في سهرة عائلية •• عائلية جدا •• كل ما فيها يجري على قواعد البروتوكول •• خنقتني ربطة العنق من الساعة التاسعة حتى الثانية عشر •• أرسلت مائة نكتة مهذبة •• تكلمنا عن السياسة من أفواهنا ••حماسنا كان شديدا لحقوق العمال والفلاحين •• أيدينا كلها كانت ناعمة •• دخل أكثرنا الشهري يزيد على الالف •• مر ذكر قريتي العطشى فتقززنا جميعا لدى ذكر الغبار والروائح القروية •• جو الغرفة كان عابقا برائحة « الشانيل والشيبر » •

أرادت الخادمة أن تدفعه عن الدخول ولكنه من أصحاب البيت ، بيتنا العتيق ، ذي الباب المخلوع وجدران اللبن التي تموء عليها قطط الحي « وتلطو » فوق شقوقه العصفور الذي عشش في ثناياه •• شجرة التوت الكبيرة هو الذي كان يهزها لنا فهو أقدر شباب الحي على تسلقها رغم قدمه العرجاء ونمسك نحن بالحصيرة القديمة كي تسقط عليها الثمرات •• « مهباج القهوة » لم يعانقه مثله بحنان أحد •• كان يحدب عليه وهو « يدق » القهوة بنغم رتيب حلو فأحس أنه يضمه الى صدره كعاشق غيران •

* * *

عندما مات أبي ووزعت ثيابه القديمة على الفقراء جاءني باكيا يقول : « لقد باع رحمون القنباز الحريري •• » وخرج وهو يقول غاضبا « لست أهلا لان (تحوي) ثياب أبيك •• عصاه لا تعطها لاحد • أنا أحق الناس بها اذا أثقلت عليك • » •• وعاد بعد قليل •• كانت وراء باب المضافة •• دق مسمارين كبيرين فوق الباب ووضعها هناك كما يوضع سيف المحارب الشهيد في صدر البيت •

* * *

وجدته جالسا مطرقا برأسه ، عيناه تثقبان أرض الغرفة النظيفة ، كوفيته تخفي نصف معالم وجهه وعقاله

مشدود الى أسفل جبينه ، وهم ثقيل ينخر عظامه .. وابنه (عناد) الاشقر الصغير ذا الست السنين ملقى باعياء على الاريكة .. دخلت فتلقفني شبح الموت يجرني من ربطة العنق الى عناد الذي كان يقفز في المضافة كقرد صغير ولا أرده اكراما لابيه .. وقفت ذاهلا لا أتكلم ثم قلت ببرود برم : « مرحبا ! .. خير ان شاء الله ! » .

قال : « بسيطة .. عناد ! » وأشار اليه ولم يتم لان الكلمات ماتت على لسانه .. كان جمود عينيه ينبىء عن دموع غزيرة تختفي في مكان لا يدركه الا الله .

اقتربت من الصبي وعيناي تائهتان في صفرته الجامدة والزرقة اللئيمة تحفر حول العين الخضراء الواسعة بحرا عصي الظلمات .. قريتي كلها كانت حول عينيه . وضعت يدي قريبا من أنفه وأنا أتساءل : « أميت هو أم يتنفس ؟ » أن أنينا خافتا .. قلت : « ما به ! » .. قال : « كان يلعب فسقط على قفاه وكسر حوضه .. أخذناه الى أكثر من مجبر ولكنه لم يشف! »

* * *

« عناد » سر حياتي الكبير .. هي وحدها تعرفه . لم تنبس به شفتي لانسان .. أن أنينا موجعا ولكن أنينه كان بعيدا عني بعد الله عن أعماقي ، لان أعماقي باتت عني غريبة .. أنكرتني البناية وتنكر لي الشارع فأنكرت ذاتي .. تركتها هناك منزوية في مكان لا ظل فيه ، حيث كانت الشجرة العالية التي جفت عروقها وغادرتها الخضرة .. العصفور نفسه غادرها ذليلا .. بلا جذور .

اقتربت منه وأنا أقول في سري : « قليل الذوق ! أما كان بوسعه أن يرقد وابنه في فندق ما ؟ أيظن أننا في قرية ؟ » .

لقد أحس محمد بما يجول في خاطري .. تقطيب جبيني كان يكذب ما يتفوه به لساني ، لم تستطع المدينة أن تتغلب على تعبير ملامحي .. رميت له الفراش في أبعد زاوية ممكنة .. لم ينم طوال الليل لان ابنه كان يتعذب ولم أنم أنا لاني كنت استثقله .. لم يعد شيئا بالنسبة الي .. التوتة هناك والمهباج والعصا وكل الأشياء القروية وهي بعيدة عني بعد النور عن ذاتي .

* * *

في الصباح أرسلته الى المستشفى . وجدت له الوساطة التي لا ترد . وتنفست الصعداء عندما حملت عني السيارة الحمل الثقيل .. ذهب ولم يبق على موعدي معها غير دقائق خمس . كانت عيناه ترجوان أن أرافقه لان الفلاح يزعجه الدخول الى دور الدولة وحيدا ، يحس فيها بوحدته على حقيقتها ولكنها تنتظر . كدت أقول له قف كي أذهب معك ولكني سلكت السبيل الآخر .. عينا عناد كانتا ترقبان خطواتي العاشقة .. الشارع كان كله عينين رقيبتين .. كأني بالجدران تتقيأ عيونا خضرا حولها زرقة كئيبة لبحر عصي الظلمات .. الحجارة كانت تتفتح عن كائنات تمد لي الحبال كي أتعثر فأسقط فأعود .. كائنات غريبة تمسك سياطا تلسع وجداني ، تنفث نارا تحرقني لها عيون خضراء نصف مغمضة ، اغماضة صبي ذابل .

كنت بعد كل خطوة أحاول العودة ولكن قدرة فوق قدرتي ، فوق حنيني للقرية كانت تشدني اليها .

* * *

كانت هي أيضا ترقبني .. أي جسد ذاك الذي يبدي رعشاته الثوب الشفاف الانيق ؟ فينوس تختلج عطاء وأنا في دوامتي الصامتة أتكلم فأقول غير ما أريد .. روحي كانت في أعالي السماء وكلماتي من الارض .. ذاب عناد والتوتة والمهباج وكل الاشياء القروية .. كنت في غير هذا العالم ، في أرض الرؤيا وعيناي تنفذان الى أصقاع الجمال المجهولة . ما كان الذي بي نهما أو شهوة .. كنت كمن يطرق باب سور كبير يرى ببصيرته المدينة التي وراءه رغم ضخامة أسوارها . كنت تائها وجد كل تيهه فحدق فيه يريد أن يضم كل عجائبه وسحره الى روحه .

كل يوم ، كل ساعة أجد فيها جديدا ما عرفته من

ذي قبل .. أذهب اليها مغمض العينين لأجد أشيائي الجديدة كأنها وعد جاء من الغيب ، دائم الجدة ، لا ماضي فيه ، مستقبل دائم .. حياة لا تمل العطاء .

واليوم كانت أجمل ما تكون . قلت لها : كدت أتأخر .

قالت : لم ؟ وحكيت لها حكاية عناد وحدقت بعينيها .. رأيت كل جمال الله فيهما .. في انسانهما رأيت عينين خضراوين ذابلتين .. ثوبها كان يتفجر عيونا خضراء حولها زرقة داكنة لصبي ذابل .

لم تجب ولكني أبصرت عتبا حنونا في كل ذاتها .

رجعت الى ابيت وانتظرت أن يعود محمد دون جدوى .

ذهبت الى المستشفى وسألت عنه . قيل لي : « أخذ ابنه وذهب .. مات الصغير أثناء العملية . » .

عندما خرجت من المستشفى كانت على بابه . ما الذي جاء بها ؟ لقد عرفت سري .

* * *

أنقذني يا صديقي .. أنا مذنب قذفه الله من جنانه .. أنا مذنب يجهل ذنبه .. أنا لست ذلك الانسان الذي طرد ميتا من بيته ، أنا انسان آخر .. لقد دلتني على سبل الرحمة .. يدي تنبض بها ، تزيل البغض والكره ، تمحو الشقاء اذا مرت عليه . تمنح الالهي للانسان .

الآن فقط أليق بها .. أنا أهل لان آوي الى معبد الله ، أهل لعطائها ولكني طردت ميتا قرويا من بيتي .. لا ! كان ذلك انسانا آخر ، غريبا عن كل أرض ، كافرا بكل صلاة .. انسان اقتلعت جذوره .

أنا كائن آخر لست مسئولا من ذاك أجهله بل لم أعرفه مدى حياتي كلها .. كان في أعماقي وحش مات عندما تجلى علي الجمال .. ولكني مطرود من الجنة.. لن تقبلني في رحابها .. قل لي ماذا أفعل ؟

ليتني أعود ذلك الكافر ..

الدكتور سامي الجندي

البحيرة

(مترجمة عن شاعر الحب والجمال لامرتين)

تعريب : رشاد علي الديب

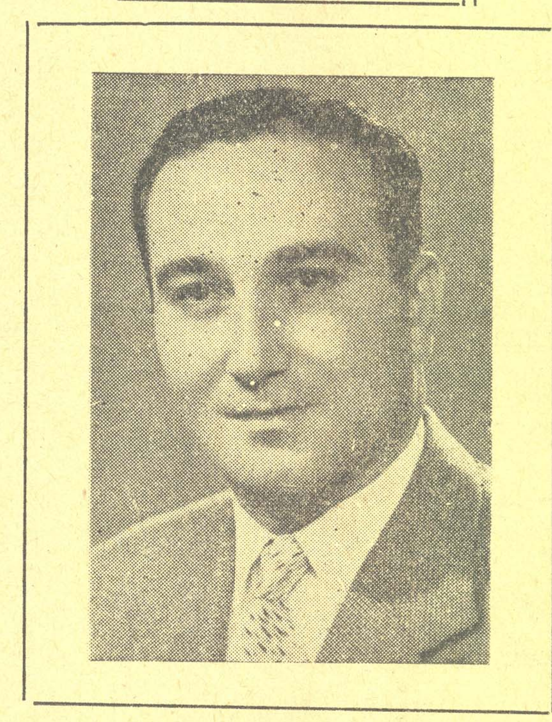
أقضى الله هكذا أن نسيرا … في عباب الحياة سيرا عسيرا
دافعا فلكنا الزمان حثيثا … سادلا فوقنا الظلام ستورا
مستمرين في الشواطىء جريا … وانتقالا معجلين مرورا
دون أن نستقر أو نملك العو … د الى مرفأ زمانا قصيرا
أنظري يا بحيرة الاكوانا … منهيات أفلاكها الدورانا
وانظري العام كيف أوشك أن يم … ضي وما زلت هائما حيرانا
أنا وحدي على ضفافك أرجو … وصل (الفير) مثلما قد كانا
جالسا فوق صخرة طالما أل … فيتها فوقها تنير المكانا
هكذا كنت تهدرين حيالي … غابر الامس والليالي الخوالي
تكسرين الموج العنيف على هـ … ذي الصخور الصم انكسار اللآلي
والهواء المزغرد الحلو يلقي … زبدا زاهي الحلى والجمال
راكعا ساجدا على قدميها … بخشوع ورغبة وابتهال
أترى قد نسيت أم تذكرينا … ليلة أسفرت هوى وفتونا
حين كنا على مياهك في الزو … رق نختال يسرة ويمينا
والسماء انجلت فضاء محيا الـ … كون وامتد هدأة وسكونا
غير عزف المجداف في نغم المو … ج بأسماعنا يرن رنينا
واذا من ضفافك الزاهيات … رن صوت محبب النغمات
ما لنا في سماعه قبل عهد … شق حجب السكون بالنبرات
أنصت الموج والهواء اليه … بعد أن أمسكا عن الزفرات
وأتى موحيا الي ببث … فتلقيت هذه الكلمات
ايه يا أرض رحمة لا تدوري … وقفي مدة بنا لا تسيري
ايه ساعات عمرنا هدئي جر … يك حينا في العالم المعمور
ودعينا ننعم زمانا ونرغد … ونمتع بطيب عيش قرير
ثم ان شئت بعد ذلك سيرا … فاركضي في مشيبنا أو فطيري

هاك صرعى الآلام والبأساء ... لا يودون لحظة في البقاء
كلهم ضارعون داعون أن تط ... ويهم في الثرى أكف الفناء
فأجيبي دعاءهم وخذيهم ... وارحميهم من العنى والشقاء
ودعي الراتعين في لذة العيـ ... ـش اغترارا بغبطة وهناء
بيد أني والهفتي وعذابي ... لست أدنو من الاماني العذاب
واذا ما طلبت شيئا من الدهـ ... ـر أبى أن يجيبني لطلابي
رمت من ليلتي التمهل والطو ... ل قليلا فأسرعت بالذهاب
وتنزى باز الصباح وأهوى ... بغراب الظلام بعد اقتراب
فلندر أكؤس الغرام دهاقا ... ان خمر الهوى تطيب مذاقا
ولنبادر لقطف ما نشتهيه ... واجتناء المنى بما نتساقى
نحن من هذه الحياة بلج ... ما له ساحل به نتلاقى
ـع تياره نمر ونمضي ... وهو يمضي تدفعا واندفاقا
أيها الغادر الحسود الحقود ... أيها الدهر أنت طاغ مريد
أكذا شئت تنقضي لحظات الـ ... لأنس لمحا وما سواها نريد
أكذا شئت تنقضي سكرات الـ ... حب لمحا ونحن فيها نميد
مثلما تنقضي وتمضي عهود الـ ... بؤس والتعس أين منك العهود
ويك يادهر قل ألا نستطيع ... لمح أنوارها ألا نستطيع
أتراها غدت الى غير رجعى ... أم قريبا يكون منها رجوع
ويلتي هل عفا بها كل شيء ... وذوى زهرها فليس يضوع
وهل الحادث الذي قد دهاها ... بغروب يكون منه طلوع
أيها الكون والفناء الرهين ... أيها الغور والزمان الدفين
نبني ما الذي صنعت بأيا ... م طواها حشاك ما ان تبين
أفلا تستعيد أيام بشري ... وصفائي فقد كوتني الشجون
أفلا تستعيد نشوة سكري ... وغرامي فقد براني الحنين
أيها البحرة الصخوب الرزان ... والصخور البكماء والغيران
أيها الغابة الرفيفة ظلا ... سوف تبقين ما استمر الزمان
خلدي ذكريات ليلتي الزهـ ... ـراء صونا فالذكريات تصان
واحفظي عطرها فان شذاه ... تشتهيه الارواح والابدان
ليدم ذكرها بساجي ضميرك ... بحرة الحب أو بصوت هديرك
وبأرياحك السوافي وفي آ ... كامك الضاحكات أو في صخورك
وليدم بالصنوبر الباسق الرا ... س وأنسامه خلال سطورك
وبنور النجم المفضض يزهو ... سابحا راقصا بماء غديرك
وليقل بعدك الهواء دواما ... صافرا ان أحب عنا الكلاما
وليقل زافرا بلحن شجي ... قصب هز ساعدا وقواما
وليقل ناعم النسيم اذا ما ... فاح ندا وعنبرا وخزامى
وليقل كل ما نعيه بحس ... ها هنا عاشقان ذابا هياما

رشاد علي أديب

الملق آية النفاق !

بقلم : الدكتور صالح الأشتر



تلك هي ظاهرة (الملق الادبي) التي بـدأت تطغى في وسطنا الادبي ، حتى انها لتهددنا اليـوم بتشويه معالم حياتنا الادبية وتحطيم ما نملك فيها من مثل وقيم ،وليس عجيبا بعد ذلك أن يفقد كثير من المتأدبين حس التمييز بين الاثر الادبي الناضج المكتمل ، والاثر الادبي الفطير الركيك ..

قـال لي صديق يتذوق الادب ويفهم حلوه من مره : قرأت اليـوم شعرا ركيكا في بعض الجرائـد ، فكدت أتقيأ منه قرفا وتقززا ، ونظرت فاذا في الجريدة فيض من تمجيد لا أول لـه ولا آخـر ، يتحـدث عن « الدرة العصماء » والقصيدة البليغة الرائعة التي تسحر الآذان والالباب ، فأدركني لذلك خجل وارتباك ،وعدت أتهم نفسي وذوقي ، ورجعت أقرأ من جديدتلك«الدرة» الفريدة ، فتكشفت لعيني عيوب جديدة فيها ، زادتني ايمانا بركاكة النظم واحتضار الروح الشعرية الحق ، فوقفت لا أجزم برأي ، ذلـك أن التمجيد الذي يقدم القصيدة الى القراء ، صاغه قلم رجل يشتغل بالادب ، وأنا رجل لا صلة لي بهذا الادب الا ما يكون بين قارىء يحسن القراءة والتذوق ، ولا يجاوز ذلك الى شيء آخر من صنعة الادب والنقد ! غـير أني ملق اليك بأمر لا أظنك تجهله ! فأنا لست وحدي في قرفي من هذا الشعر وعجبي مما في تقديمه من ملق ، ذلك أني لم ألق أحدا ممن أتوسم فيه التذوق والفهم من أصدقائي ، الا وجدته يسخر من « الدرة المنظومة » ويغمز من اطار النفاق الذي تقدمها !

قلت لصديقي : لقد وضعتني بحديثك اليوم أمام تلك الظاهرة التي أصبحت اليوم حديث كل متأدب ، ظاهرة أدبية تستحق أن نقف عندها ، وندرس أسبابها ، ونلتمس لها الحلول اللازمة ..

لفت نظري اليها ـ أول ما لفت ـ كتاب حمله الي البريد منذ شهر ، من صديق أديب كريم ، كله عتب علي لاني عـددت من النقد ما كتبه ذلك الصديق في مقدمة كتاب جديد صادر لاحد أصحابه ، ذلك أنه لم يكتب ما كتب الا بدافع من خجله والحاح صاحبه ، على أن التقريظ غـير النقد ، ففي التقريظ يلتمس الناقـد الجوانب المضيئة من الكتاب ، فيزيدهـا بروزا ويلفت الانظار اليها ، ويسكت عن الجوانب المظلمة فلا يقول فيها شرا ولا خيرا .. الخ ..

وحين قرأت رسالة الصديق الشاكية العاتبة قفزت الى رأسي خواطر كثيرة ، وبدت لعيني تلك الظاهرة الادبية الجديدة التي تستحق منا كل اهتمام ودراسة !

فهذا الطوفان من الملق الادبي يزحف دون خجل أو خوف ، لانه لا يجد في وجهه من ينتصب للدفاع عن الحقيقة الادبية الضائعة ، والنضال دون كرامة الكلمة..

لقد كتبت منذ أشهر قريبة الى اليوم أكثر من مقالة ، حاولت أن أهز فيها الضمائر الادبية النظيفة ، لتدرك ما وراء سكوتها على الملق الطاغي من أذى ، ولتعرف أن موقف اللامبالاة الذي تتخذه من انحراف الوجدان النقدي وعبثه ستكون له نتائجه الخطيرة في نشر الزيف وطغيان النفاق واختناق الحقائق الادبية وأمام ذلك لا بد من أن تنهار القيم الادبية وتختل المثل والمقاييس ، وانهيار القيم واختلال المقاييس هما - كما قلت أكثر من مرة - سر بلاء حياتنا الادبية وتدهورها..

والآفة الرهيبة حقا ، التي تبرز لكل عين من وراء اضطراب القيم والمقاييس في حياتنا الادبية هي ما أسميته بعقدة التباغض في الاوساط الادبية ، لا تلك العقدة التي تفح كالافعى ، وتنشر سمومها في كل قلب ، وتجعل الجماعة التي تربطهم أخوة القلم والفكر أفرادا متنابذين متحاسدين ، يرسل كل منهم في أخيه لسانا مسموما ، يكشف عوراته ويفضح الخفي المستور من عيوبه ..

ولقد حاولت مرة أن أحلل هذه الازمة المستحكمة في حياتنا فاذا أنا مسوق الى الوقوف عند ظاهرة النفاق الادبي مرة أخرى ، ولا تعجبوا من أن يقودني البحث في أزمة التباغض الى الطرف الاقصى الآخر .. أعني الحب المفرط والملق المنافق ، فتفسير ذلك أن النفاق - كما قلت غير مرة - وسيلة رخيصة هينة ، يلجأ اليها الضعفاء الذين تعوزهم الموهبة ، لتفتح أمامهم الابواب الموصدة ، عن غير حق وجدارة ، وليتاح لهم أن يفوزوا بالمغانم دون أهلها ، وماذا يضير هؤلاء أن يسخو قلمهم بالمدح والتقريظ ، وأن ينعتوا هذه المنظومة المهلهلة النسج بالقصيدة الدرة العصماء ، ويصفوا ذاك المقال المتهافت الضعيف بالروعة والعبقرية ، ماذا يضيرهم أن يفعلوا ذلك ، ما دام الملق ييسر لهم الطريق الى الصعود والتقدم والسبق !! أما الآخرون ، أما الموهوبون حقا ، الذين يعتصرون أيامهم ولياليهم سهدا وجدا وعطاء أصيلا ، فليس لهم الا أن يقبعوا في الزوايا ، لانهم لا يحسنون أن يريقوا ماء وجوههم ، وللكلمة التي يلدها وجدانهم حساب دقيق عسير .. ولهذا فهم يزحفون على الارض ، وينظرون الى الذين يطيرون في السماء بأجنحة من النفاق والملق ، نظرات حاقدة ترضع من قلوب تعصف فيها الحسرات ، ويفح منها البغض ، واذا تحركت منهم الالسنة فاضت بالتجريح ونفثت الضغينة والكره والصديد !

هذه الجرائم التي تفتك بجسم الحياة الادبية زرعها النفاق والملق ، والعجيب أن كل من يشم رائحة الملق المفضوح في أوساطنا الادبية يقلب شفته تقززا ، ثم لا يجاوز ذلك الى التماس حل ايجابي !

والعجيب أيضا أن أصحاب الدرر المنظومة أو المنثورة - كما سبق أن قلت - هم أعرف الناس بأقدار ما يكتبون ، وبأسرار المنافقين وأغراضهم وأطماعهم ، ولكنهم مع ذلك يذوبون أمام الملق ، ويستقبلون المتملق بنفس راضية واستحسان وتشجيع ، حتى لكأنهم يخدعون بذلك أنفسهم قبل أن يخدعوا الناس !

أود أن أقص على هؤلاء الراضين بالملق قصة صغيرة ، بطلها رجل لم يعرف تاريخ العرب نظيرا له في صراحته وكرهه للنفاق وهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب .

قيل ان أهل الكوفة لما قدموا على عمر بن الخطاب يشكون اليه واليهم سعد بن أبي وقاص ، قال عمر :

- من يعذرني من أهل الكوفة ، ان وليتهم التقي ضعفوه ، وان وليتهم القوي فجروه !!

فقال رجل :

- أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوي الامين !

قال : - ومن هو ..

قال :

- عبد الله بن عمر !

فقال عمر :

- قاتلك الله ، فمنذ اليوم لا أسميك الا المنافق!!..

ألا ما أحوجنا اليوم في حياتنا الادبية الى صراحة عمر ، اذن لخرس صوت النفاق والملق ، ونجت حياتنا الادبية من الظاهرة الرهيبة التي رصدناها ؟

الدب

مسرحية في فصل واحد

بقلم : أنطون تشيخوف

الاشخاص : ايلينا ايفانوفنا بوبوفا ، أرملة شابة من ذوات الاملاك ، يعلو وجنتيها قليل من النمش .
جريجوري ستيبانوفيتش سميرنوف ، مزارع في منتصف العمر .
لوقا ، خادم السيدة بوبوفا ، عجوز طاعن في السن .

المنظر : غرفة استقبال في دار السيدة بوبوفا الريفية ، تبدو السيدة في لباس الحداد الاسود ، وقد علقت ناظريها في صورة فوتوغرافية . لوقا يتحدث اليها :

لوقا : ليس هذا من التعقل في شيء ، ياسيدتي . أنت تقضين على نفسك فقط . هذه الخادم والطاهية قد انطلقتا تجمعان توت العليق ، وكل مخلوق حي يود أن يتمتع بالحياة ، حتى ان القطة لتعرف كيف تمتع نفسها ، فهي تتجول في الساحة تصيد العصافير .. وليس الاك ، تقبعين في هذه الغرفة طوال النهار ، كما لو كانت هذه الغرفة ديرا أو صومعة ، فما تحاولين أن تدخلي البهجة والسرور الى قلبك أبدا . نعم ، هذا صحيح ! أظن أنك لم تبرحي الدار منذ سنة كاملة !

السيدة بوبوفا : وأنا لن أخرج منها أبدا .. وما يدعوني الى ذلك ؟ لقد انتهت حياتي . فهو مسجى في ضريحه ، وأنا دفنت نفسي بين هذه الجدران الاربعة . فكلانا قد مات !

لوقا : ما هذا الذي تقولين ؟ يجب ألا أصغي اليك ، من دون ريب . لقد توفى الله نيقولاي ميخائيلوفيتش ، اذن ، نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا ، انها ارادة الله . وأرجو أن تنعم روحه في ملكوت السماوات ! ولقد بكيته أحر البكاء ، وهذا كاف ، فثمة حدود لكل شيء . والمرء لا يستطيع أن يبكي ويحزن الى الابد . لقد توفيت زوجتي العجوز أنا أيضا ، عندما انتهى أجلها وحانت ساعتها . حسنا ؟ لقد حزنت عليها ، وبكيت طيلة شهر كامل ، وأحسب أن ذلك يكفيها . وأما أن أظل أبكي طيلة العمر ، حسنا ، ان تلك الشيخة لا تستأهل ذلك اطلاقا . (يتنهد) لقد نسيت كل من يحيط بك من الجيران .. وأنت لا تغادرين الدار ، ولا تقابلين أحدا . نحن نعيش ، واصفحي عني ، أشبه بالعناكب – لا نرى للنهار ضوءا على الاطلاق . لقد هرأت الفيران ألبستي وأكلت أكثر أجزائها . وتتصرفين كأن الناس الطيبين لا يحيطون بنا – ان المقاطعة تعج بالسادة الافاضل . ولقد عسكرت فرقة من الجيش في ريبلوف ، وضباطها يقطرون حلاوة ، بحيث لا تستطيعين ارواء عينيك من طلعتهم البهية . وهنالك في كل يوم جمعة حفلة راقصة في المعسكر ، فتعزف فرقتهم الموسيقية

الالحان العذبة الرائعة كل يوم تقريبا . ايه ، ياسيدتي العزيزة ! أنت شابة وجميلة مزيج من الخوخ والحليب ، لا ينقصك سوى شيء من المرح والسرور . ان الجمال ، كما تعلمين ، لا يعمر طويلا . واذا ما انقضت عشر سنوات ، وأحببت أن تبهري الضباط بمحاسنك ، يكون الوقت قد فات ومضى .

السيدة بوبوفا : (في عزم) أرجوك ألا تعود الى مثل هذا الحديث مرة أخرى ! أنت تعرف أن الحياة قد فقدت كل قيمة لها عندي ، منذ وفاة نيقولاي ميخائيلوفيتش . أنت تحسبني ما زلت على قيد الحياة ، ولكن هذا يخطر في بالك وحدك فقط ! لقد نذرت على نفسي ألا أخلع ثياب الحداد عن جسدي ، وألا ترى النور عيناي حتى آخر رمق من الحياة يصطخب في صدري . أسامع أنت ؟ فليكن شبحه شاهدا على ما أضمر له من حب ! نعم ، أنا أدري أنه لا يخفى عليك كم كان يقسو علي في أغلب الاوقات ويجور ، و .. حتى انه كان يخونني أحيانا ، ولكنني سأظل صادقة له وفية لحبه حتى الموت ، كيما أبرهن له كيف أستطيع أن أحب حبا صادقا . وسيراني ، من هناك ، من العالم الآخر ، مثلما كنت عليه قبل وفاته ..

لوقا : بودي لو تنطلقين في نزهة عبر الحديقة ، عوضا عن اضاعة الوقت في مثل هذا الحديث ، أو أن تأمري باسراج الحصان توبي أو المارد ، ومن ثم تنطلقين لزيارة بعض الجيرة والاصحاب .

السيدة بوبوفا : أوه . (تبكي) .

لوقا : سيدتي ! سيدتي العزيزة ! ما هذا ؟ حفظك الله !

السيدة بوبوفا : لكم كان يحب توبي ! كان يمتطيه دائما في زياراته لاسرتي كورشاجين وفلاسوف ولكم كان يحسن الركوب ويجيده ! ما كان أبهى طلعته وأجلاها حين يمسك باللجام بكل ما لديه من قوة وبأس ! أتذكر ذلك ؟ توبي ، توبي ! مرهم أن يقدموا له وجبة فاخرة من الشوفان هذا النهار ..

لوقا : أمرك ، يا سيدتي . (صوت جرس يدق بعنف) .

السيدة بوبوفا : (مرتعدة) من هذا ؟ قل اني لا أستقبل أحدا .

لوقا : سمعا وطاعة ، يا سيدتي . (يخرج) .

السيدة بوبوفا : (تتطلع الى الصورة) لسوف ترى ، يا نيقولاس ، كيف أستطيع أن أحب وأسامح . ان حبي سيموت معي ، حينما يتوقف هذا القلب المسكين الصغير عن خفقاته . (تضحك من خلال دموعها) . ولكن ، ألم تحس بالخجل ؟ انني زوجة فتية مخلصة طيبة . لقد انقطعت عن العالم وأغلقت الابواب على نفسي ، وسأبقى أمينة لك حتى يغيبني القبر . أما أنت .. ألم تشعر بالخجل ؟ أنت ، أيها الطفل الشرير ؟ لقد كنت تخونني ، وتختلق لي الروايات ، وتخلفني وحيدة أسابيع بطولها .. (يدخل لوقا) .

لوقا : (مفزوعا) سيدتي .. ثمة رجل يسأل عنك ، ويود رؤيتك ..

السيدة بوبوفا : ولكن ، ألم تخبره أني انقطعت عن مقابلة الناس منذ وفاة زوجي ؟

لوقـــا : لقد فعلت ، ولكنه لم يصغ الي • وقال ان ثمة قضية عاجلة خطيرة •

السيدةبوبوفا : أنا لن أستقبل أحدا !

لوقـــا : لقد أفهمته هــذا ، ولكــن •• ولكــن الشيطان •• زمجر ، وشتم ، ودفع بنفسه داخل الباب •• وهــو الآن في غرفــة الطعام •

السيدةبوبوفا : (متضايقة) حسنا ، فليدخل•• ياالاخلاق هؤلاء الناس ! (يخرج لوقا) • لكم يضايقني هؤلاء القوم ! ماذا يبغون مني ؟ ولم يعكرون علي صفو وحدتي؟ (تتنهد) كلا ، لا بد أن أدخل الدير • (تتأمل قليلا) • نعــم •• الى الدير (يدخل سميرنوف ولوقا) •

سميرنوف : (يخاطب لوقا) أنت ، يا أحمق ، أنت ولوع بالثرثرة كثيرا •• أنت حمار ! (يرى السيدة بوبوفا فيتكلم بوقار وأدب) سيدتي ، لي الشرف بأن أعرفك بنفسي، فأنا جريجوري ستيبانوفيتش سميرنوف ، صاحب أملاك ، وملازم متقاعد في المدفعية! وقــد اضطررت الى ازعاجك في قضيــة عاجلة خطيرة •

السيدةبوبوفا : (دون أن تمد له يدها) ماذا تريد ؟

سميرنوف : ان المرحوم زوجك ، وقد كان لي شرف التعرف اليه ، توفي وهو مدين لي بمبلغ ألف ومائتي روبل ، وذلك بموجب صكين مسجلين • ولما كنت مضطرا الى تسديد أقساط مالية استوجب دفعها في الغــداة للبنك الزراعي ، فقــد جئت أسألك ، يا سيدتي ، أن تدفعي لي المــال هــذا النهــار •

السيدةبوبوفا : ألف ومائتا روبل ؟•• ولم هو مدين لك بهذا المبلغ ؟

سميرنوف : لقد اعتاد أن يشتري الشوفان من عندي•

السيدةبوبوفا : (تتنهد وتخاطب لوقا) لا تنس ، يالوقا ، أن تقدم لتوبي وجبة فاخرة من الشوفان! (يخرج لوقا ، فتخاطب سميرنوف) اذا كان نيقولاي ميخائيلوفيتش قد توفي وهو مدين لك ، فلسوف أدفع مالك من دون ريب •• ولكن ، يجب أن تعذرني هذا النهار ، فأنا لا أملك من النقود شيئا • سيرجع وكيل أعمالي من المدينة بعد غد، وسأطلب اليه أن يدفع حسابك بكامله • وأنا ، في هذا الوقت الحاضر ، لاأستطيع أن أحقق لك بغيتك •• يضاف الى ذلك أنه في هذا اليوم يمر على وفاة زوجي سبعة شهور تمامــا ، وتراني في حالــة نفسية لا تحبب الي أن أتحدث في المسائل المالية ، أو أعيرها أدنى اهتمام على الاطلاق•

سميرنوف : وأنا ، أيضا ، في حالة نفسية تجبرني على أن أهرب من هذه الحياة ! ان لم أدفع الفوائد المترتبة علي في الغداة • سيحجزون على ما عندي من أملاك !

السيدةبوبوفا : بعد غد تقبض مالك •

سميرنوف : انني في حاجة ماسة الى المال هذا النهار، وليس بعد غد •

السيدةبوبوفا : انني آسفة ، فأنا لا أستطيع أن أدفع لك اليــوم •

سميرنوف : وأنا لا أستطيع الانتظار الى ما بعد غد •

السيدةبوبوفا : لكن ، ماذا أفعل ان لم أكن أملك نقودا الآن ؟

سميرنوف : اذن ، أنت لا تستطيعين أن تدفعي لي ؟

السيدةبوبوفا : كلا ، لا أستطيع •

سميرنوف : هم ، وهذه هي كلمتك الاخيرة ؟

السيدةبوبوفا : نعم ، الكلمة الاخيرة !

سميرنوف : الكلمة الاخيرة ؟ الاخيرة نهائيا ؟

السيدة بوبوفا : نهائيا !

سميرنوف : شكرا جزيلا لك . وسأذكر لك هذا كله . (يهز كتفيه) . ويريدني الناس أن أحافظ على هدوئي . لقد التقيت بالوكيل في الطريق ، فسألني : « لم أنت دائم الغضب ، ياجريجوري ستيبانوفيتش؟ ولكن ، كيف لا أغضب بحق السماء ؟ انني بحاجة قصوى الى المال حالا . لقد خرجت البارحة ، في الصباح الباكر ، وعرجت على كل من يدين لي ، ولكن أحدا منهم لم يدفع لي كوبيكا ! لقد أنهكت نفسي ، ولقد نمت البارحة والله وحده يدري أين نمت ، في خان يديره بعض اليهود ، وغفا بجانب رأسي برميل من الفودكا .. وفي النهاية ، وصلت الى هنا ، بعد أن قطعت مسافة تقرب من خمسين فرسخ ، على أمل أن أقبض شيئا من المال ، فاذا بي أقابل « بحالة نفسية » ! كيف لم يتملكني الغضب ؟!

السيدة بوبوفا : أعتقد أني أوضحت لك أنك ستحصل على نقودك حالما يرجع وكيل أعمالي من المدينة .

سميرنوف : أنا لم آت الى وكيل أعمالك ، بل اليك أنت ! أي عمل شيطاني ــ واعذري هذا القول ــ أستطيع أن أعمل مع وكيل أعمالك !

السيدة بوبوفا : اعذرني ، ياسيدي ، فأنا لم أعتد الاصغاء الى مثل هذه اللغة ، أو مثل هذه النغمة. ولن أصغي اليك أكثر مما أصغيت . (تخرج مسرعة) .

سميرنوف : هذا شيء رائع ! ليست في «حالة نفسية»، وزوج توفي منذ سبعة شهور ! وماذا عني؟ هل يجب أن أدفع الفوائد أم لا ؟ انني أسألك : هل يجب أن أدفع أم لا ؟ حسنا ، لقد توفي زوجك ، ولست في حالة نفسية ، وذلك كله .. ووكيل أعمالك ، أخذه الشيطان ، سافر الى مكان ما ، لكن ، ماذا تريدين مني أن أفعل ؟ هل أهرب من وجه الدائنين ممتطيا أحد مناطيد الهواء ، أم ماذا ؟ أم تتوقعين مني أن أضرب رأسي بجدار من القرميد ؟ لقد ذهبت الى جروسديف فلم أجده في بيته، أما ياروشوفيتش فقد خبأ نفسه مني . وقد كان بيني وبين كورتسين عدة شتائم عنيفة حادة ، فكدت أحمله الى النافذة وأرميه منها . ومازوتوف معدته مضطربة.. وتجيء هذه المرأة ــ بحالتها النفسية ! ليس أحد من هؤلاء الانذال يريد أن يدفع لي ! وما ذلك الا لانني كنت ودودا معهم الود كله ! لانني كنت أتخاذل في مطالبتهم ، فأذوب كالشمع بين أيديهم ! حسنا ، انتظري قليلا ! وسترين ما ستؤول اليه حالي ! لن أدعك تسخرين مني ، أخذك الشيطان ! سأظل قابعا هنا حتى تدفعي ما عليك من مال ! بررررر.. لكم أنا غاضب اليوم ، لكم غاضب أنا ! وكل نبضة من أعصابي ترتجف حنقا وغضبا ، ولست أستطيع التنفس الا بصعوبة .. أوف ! يا الهي الطيب ، اني لاشعر بالمرض حقا ! (يصيح) أيها الخادم ! (يدخل لوقا) .

لوقا : ماذا تريد ؟

سميرنوف : ائتني بقليل من الكفاس [1] ، أو جرعة من الماء . (يخرج لوقا) كلا ، أي منطق هو هذا ؟ رجل في أشد الحاجة الى نقوده،

---

(١) شراب روسي يستخرج من خبز أسود .

رجل يكاد أن يعلق نفسه من رقبته ، وهي لا تريد أن تدفع له ، لانها ، كما ترون ، في حالة نفسية لا تسمح لها بالاهتمام في المسائل المالية ! انه حقاالمنطق نسائي سخيف ! وهذا هو ما جعلني أكره النساء ، وأصدف عن التحدث اليهن ، ولا أعرف كيف أتحدثاليهن • واني لافضل أن أجلس على برميل من البارود من أن أتحدث الى امرأة • برررر •• اني أشعر بالبرد القارس – ان هذه المرأة لتثير غيظي ! وأنا لا أطيق أن أرى واحدة من هاته المخلوقات البشرية الخيالية ، ولو عن بعد ، الا وأغرق في بحر من العرق البارد بسبب من الغضب الشديد الذي ينصب في جوانحي • انه يرغمني على أن أصبح طالبا النجدة • (يدخل لوقا يحمل قليلا من الماء) •

لوقا : ان السيدة مريضة ، وهي لا ترغب في مقابلة أحد •

سميرنوف : أخرج ! (يخرج لوقا) • مريضة ، ولا ترغب في مقابلة أحد ! لا ، ذلك حسن جدا ، لا تستقبليني – سأبقى ههنا حتى تدفعي لي • تستطيعين التمارض طوال أسبوع ، اذا شئت ورغبت،وسأظل قابعا هنا طيلة ذلك الاسبوع ، واذا ما استطال مرضك سنة فسأبقى هنا سنة أيضا • لسوف أستردنقودي ، ياعزيزتي الطيبة ! لن تهزأي مني بواسطة ثوب حدادك ، أو وجهك المبرقش بالبثور •• ونحن نعرف ماهية هذه البثور ! (يصيح من النافذة) سيمون ، حل أوثقة الخيل ! اننا لن نرحل عن هذا المكان عاجلا ! انني باق هنا ! قل لهم في الاسطبل أن يقدموا الشوفان للخيل ! أنت ، ياأحمق ! لقد تركت ساق الحصان تشتبك بالعنان ثانية ! (متهكما) « لا بأس في ذلك »•• سوف أؤدبك « لا بأس ! » • (يبتعد عن النافذة) أوه ، يا للهول •• الحر لا يطاق ، وليس من يدفع لي ، ولقدقضيت بالامس ليلة ليلاء ، وهذه السيدة الآن في ثياب الحداد ، وحالتها النفسية المضطربة! ان رأسي ليؤلمني •• أأشرب قليلا من الفودكا ؟ بلى ، أظن أنه يجب أن أفعل ذلك • (يصيح) أيها الخادم ! (يدخل لوقا) •

لوقا : ماذا تريد ؟

سميرنوف : هات لي قدحا من الفودكا ! (يخرج لوقا) أوف ! (يجلس ويرتب ثيابه) ينبغي أن أقول اني أبدو في حال حسنة ! لباسي مغبر ، وحذائي متسخ ، وأنا غير مغتسل ، وشعري لم يمشط ، وهذا بعض التبن على سترتي •• لا غرابة أن تحسبني السيدة من قطاع الطرق • (يتثاءب) انها قلة حياء أن أدخل غرفة استقبال وأنا على هذه الحال ، ولكن ، لا حرج علي •• فلست ضيفا ، ولكنني دائن ، وليس من ثياب خاصة يرتديها الدائنون •• (يدخل لوقا يحمل الفودكا) •

لوقا : أنت تسمح لنفسك بالتمادي كثيرا ، يا سيدي •

سميرنوف : (في غضب) ماذا تقول ؟ •

لوقا : أنا •• أنا •• لا شيء •• لقد أردت فقط ••

سميرنوف : مع من تظن نفسك تتحدث ؟ اخرس !

لوقا : (على حدة) لقد حل الشيطان علينا •• وقد حملته الريح شريرة •• (يخرج)

سميرنوف : أوه ، لكم أنا غاضب ! وقد بلغ غضبي درجة أظن معها أنني قادر على سحق العالم كله ، فأحوله الى حطام منتثر • أحس انني مريض • (يصيح) أيها الخادم ! (تدخل السيدة بوبوفا) •

السيدةبوبوفا : (مطرقة العينين) سيدي ، لقد اعتدت في وحدتي أن أبتعد عن الرجال وأصواتهم، وكذلك لست أطيق الصياح بتاتا • واني أطلب منك ألا تعكرعليوحدتيوراحتي!

سميرنوف : ادفعي لي نقودي ، فأرحل سريعا •

السيدةبوبوفا : أفهمتك بلغة صريحة أنني لا أحملالآن نقودا • انتظر الى ما بعد غد •

سميرنوف : وأنا ، بدوري ، كان لي الشرف أن أفهمك بلغة صريحة أنني في حاجة الى المال هذا النهار ، وليس بعد غد • فان لم تدفعي لي اليوم ، فسأجدنفسيمضطرا الى الانتحار غدا •

السيدةبوبوفا : ولكن ، ماذا أفعل ان كنت لا أملك مالا؟ يالك من شاب غريب الاطوار !

سميرنوف : اذن ، فأنت لا تريدين أن تدفعي الآن ؟ أليس كذلك ؟

السيدبوبوفا : أنا لا أستطيع •

سميرنوف : في مثل هذه الحال سأبقى هناحتىأحصل على نقودي • (يجلس) أنت ، أنت ستدفعين لي بعد غد؟ عظيم ! سأظل هنا الى ما بعد غد •• (يقفز واقفا) ولكني أسألك : أينبغي أن أدفع الفوائد غدا أم لا ؟ أم تحسبين أني أمزح ؟

السيدةبوبوفا : يا سيدي ، رجائي اليك ألا تصرخ • فلست في اسطبل !

سميرنوف : أنا لا أسألك عن اسطبل • أسألك : أينبغي أن أدفع الفوائد غدا ، أم لا ؟

السيدةبوبوفا : أنت لا تحسن السلوك في حضرة النساء!

سميرنوف : لا ، ياسيدتي ! اني أحسن السلوك في حضرة النساء !

السيدةبوبوفا : كلا ! أنت تجهل ذلك تماما ! أنتانسان وقح ، قليل التهذيب ! فالمؤدبون من الناس لا يخاطبون النساء على هذا الغرار !

سميرنوف : رائع ، بديع ! كيف تريدين مني أن أخاطبك ؟! أأوجه اليكالكلامبالفرنسية؟ ايه ؟ (يفقد هدوء أعصابه ويتكلم لاثغا) شد ما أنا سعيد لانك لن تدفعي لي •• آه ، اذا أنا أزعجتك ! ما أجمل هذا الطقس اليوم ! ولكم تبدين جميلة في لباس الحداد هذا ! (ينحني ويضرب عقبيه ببعضهما) •

السيدةبوبوفا : هذه حماقة وخشونة !

سميرنوف : (يقلدها ليغيظها) هذه حماقة وخشونة! أنا لا أعرف كيفأتصرففيحضرةالنساء! سيدتي ، لقد رأيت في حياتي من النساء أكثر مما رأيت أنت من عصافيرالدوري! ولقد تبارزت ثلاث مرات من أجلهن ، وهجرت اثني عشرة أمرأة ، وتسع هجرنني ! بلى ، يا سيدتي ! لقد مر بي زمن جننت فيه كثيرا ، وأصبحت عاطفيا، وصرت أهذب ألفاظي وأستعمل كلمات معسولة ، ورحت أهندمملابسي،وأمسيت أنحني في لطف •• ولقد اعتدت أن أحب ، وأتألم ، وأتأوه في ضوء القمر ، وأكون فظا ، وأذوب ، وأتجمد •• واعتدت أن أحب حبا عنيفا ، جنونيا ، عاطفيا ، أخذني الشيطان ! ولقد اعتدت أن أرتجف كما يرتجف طير العقعق ،

وأضعت نصف ثروتي في احساسات ومشاكسات عاطفية . بيد أنني الآن – أرجو أن تصفحي عني ! – لن أسمح بأن يحدث ذلك ثانية . فلقد تحملت كفاية ! العيون السود ، النظرات الملتهبة، الشفاه الحمر ، الخدود المنقطة ، ضوء القمر ، الهمسات ، الانفاس المتقطعة .. ذلك كله لن أدفع في سبيله نحاسة واحدة، يا سيدتي ! وأستثنيك من الحكم الذي سأصدره اذ أقول : ان النساء جميعا ، كبيراتهن وصغيراتهن ، كلهن مداهنات ، منافقات ، نمامات ، حقودات ، كاذبات حتى مخ عظامهن ، مهمومات ، حقيرات، حائرات ، عديمات الادراك .. وأما بالنسبة الى هذا .. (يضرب على جبهته) واعذريني ان كنت صريحا ، ففي مقدور العصفور الدوري التافه أن يوحي بالشيء الكثير الى فيلسوف ناشيء ! وأنت تمد بصرك الى واحدة من هاته المخلوقات الشعرية : انها منسوجة من الموسلين والمخمل ، تكاد أن تكون نصف الهة ، يستخفها الطرب ، لكن ابحث في روحها، فماذا ترى غير تمساح عادي ! (يضغط على ظهر كرسيه بحيث يطقطق ويتكسر). لكن الامر الاكثر اثارة هو أن هذا التمساح يتصور ، لسبب ما ، أن الاحاسيس الرقيقة هي وقف عليه ، هي امتياز له ، هي انحصار به وحده ! والحقيقة ، أخذ الشيطان ذلك ، هي أن المرأة لا يمكن أن تحب أحدا غير كلبها الصغير ! وهي ان أظهرت حبا ، فليس في مقدورها أن تفعل سوى الانتحاب والهمهمة ! وبينما يتعذب الرجل ويضحي ، فان حبها يجد تعبيرا له في الانتحاب ومحاولة القبض على أنفك بشدة . ومن سوء حظك ، يا سيدتي ، أن تكوني امرأة ، وهكذا أتيح لك معرفة طبيعة النساء معرفة كاملة. أخبريني بصراحة ، اذن ، هل رأيت في حياتك امرأة مخلصة ، أمينة ، وفية ؟ أنت لم تري قطعا ! ان العجائز والكسيحات هن وحدهن الامينات الوفيات . وأسهل على المرء أن يرى قطة بقرنين ، أو نقار خشب أبيض ، من أن يرى امرأة وفية !

السيدة بوبوفا : اسمح لي أن أسألك اذن ، من هو ، في رأيك ، الامين الوفي في الحب ؟ أهو الرجل ؟

سميرنوف : نعم ، يا سيدتي ، الرجل !

السيدة بوبوفا : الرجل ! (تضحك في مرارة) الرجل أمين وفي في الحب ! يالها من أنباء (في حرارة) أي حق يجيز لك أن تقول هذا ؟ الرجال أمناء وثابتون في الحب ! في مثل هذه الحال ، اسمح لي ، أن أخبرك أن من بين كل من عرفت في الماضي من رجال ، كان زوجي الراحل أفضلهم جميعا ! لقد أحببته حبا جنونيا ، أحببته بكل جوارحي ، أحببته مثلما تستطيع المرأة الشابة الذكية أن تحب . لقد منحته شبابي ، وسعادتي ، وحياتي ، وثروتي ، كنت أعيش وأتنفس به ، كنت أعبده كما لو كنت وثنية أو .. ولكن ، كيف كان هو ؟ كان أن ذلك الرجل الممتاز يخونني بشكل مخجل في كل خطوة ! ولقد عثرت ، بعد وفاته ، على صندوق يعج بالرسائل الغرامية في أحد أدراجه . وكان قد اعتاد في حياته – وهذا شيء مريع اذ أذكره ! أن يخلفني

وحيدة أسابيع كاملة متتالية ، ثم يغازل النساء الاخريات أمام عيني ، ويخونني على الدوام . لقد بذر مالي ، وهزأ من شعوري .. وعواطفي !.. ولكنني ، رغم ذلك كله ، كنت أحبه وأخلص له .. وليس هذا كل شيء ، بل ظللت مخلصة له ثابتة على ذكراه حتى بعد وفاته . ولقد دفنت نفسي بين هذه الجدران الاربعة الى الابد ، ولن أخلع عن جسدي لباس الحداد هذا حتى أنزل في قبري ..

سميرنوف : (ضاحكا في خبث) حداد ! .. أنا لا أفهم شيئا مما تقولين ! وكأنني لا أعرف لم أنت ترتدين ثياب الحداد السوداء هذه ، وقد دفنت نفسك بين جدران أربعة ! هذا أمر غريب جدا ، شاعري جدا ! يا للغرابة ! يا للخيال ! انك ولا ريب تأملين أن يمر أحد الفرسان أو الشعراء التافهين ، ويشخص الى نافذتك، ويحدث نفسه قائلا : « هنا ، هنا تعيش تمارا الغريبة ، التي دفنت نفسها بين جدران أربعة في سبيل حبها لزوجها !».. ان هذه الالاعيب لا تخفى علينا !

السيدةبوبوفا : (ثائرة) ماذا ؟ كيف تجرؤ على مخاطبتي بمثل هذا الكلام ؟

سميرنوف : لقد دفنت نفسك حية كما تزعمين ، ولكنك لم تنسي أن تصبغي وجهك بالمساحيق !

السيدةبوبوفا : كيف تتجاسر وتخاطبني هكذا ؟

سميرنوف : أرجوك ، أرجوك ، لا تصرخي ! فلست وكيل أعمالك ! اسمحي لي أن أنعت الاشياء بأسمائها الحقيقية . لست امرأة ، وقد اعتدت أن أعرب عن رأيي صراحة وودون مواربة ! آمل ألا تصرخي ثانية !

السيدةبوبوفا : أنا لا أصرخ ، وانما أنت الذي تصرخ ! أرجوك ، دعني وشأني !

سميرنوف : ادفعي مالي عندك من نقود ، ولسوف أذهب .

السيدةبوبوفا : لن أدفع لك شيئا !

سميرنوف : أوه ، كلا ، يا سيدتي ، بل ستدفعين لي مالي !

السيدةبوبوفا : لن أدفع لك شيئا ، لمجرد اغاظتك فحسب . دعني وشأني !

سميرنوف : ليس مما يسرني أن أكون زوجك أو خطيبك ، ولهذا أرجو ألا تختلقي الروايات . (يجلس) فأنا ، أنا لا أحب ذلك .

السيدةبوبوفا : (ترتجف غضبا) أتجلس أيضا ؟

سميرنوف : نعم ، أجلس !

السيدةبوبوفا : أطلب اليك أن تخرج من هنا !

سميرنوف : ادفعي لي نقودي .. (على حدة) أوه، لكم أنا غاضب ! (لكم أنا غاضب) .

السيدةبوبوفا : يا للوقاحة ! اني لا أريد أن أتحدث اليك . أرجوك أن تخرج من هنا ! (صمت) أفلن تخرج ؟ لا ؟

سميرنوف : لا !

السيدةبوبوفا : لا ؟

سميرنوف : لا !

السيدةبوبوفا : حسنا ، اذن ! (يدخل لوقا) لوقا ، أخرج هذا السيد !

لوقا : (يقترب من سميرنوف) يا سيدي ، كن لطيفا وأخرج حين يطلب اليك الخروج! لا تكن ..

سميرنوف : (يقفز واقفا) اخرس ! مع من تظن نفسك تتكلم ! سأقطعك اربا !

لوقـــا : (يضع يده على قلبه) رباه !•• أيها القديسون !•• (يرتمي على مقعد قريب) أوه ، أنا مريض ، أنا مريض ! لا أقوى على التنفس !

السيدةبوبوفا : لكن ، أين الخادم داشا ؟ داشا ؟ (تصيح) داشا ! بيلاجيا ! داشا ! (تقرع الجرس)•

لوقـــا : أوه ! لقد خرج الجميع يقطفون توت العليق •• ليس ثمة انسان في الدار •• اني مريض ، أعطوني ماء !

السيدةبوبوفا : (الى سميرنوف) أرجوك أن تخرج !

سميرنوف : ألا يمكن أن تكوني أكثر تأدبا ؟

السيدةبوبوفا : (تجمع قبضتيها وتضرب الارض بقدمها) أنت دب ! بهيم ، جعجاع ، وحش !

سميرنوف : ماذا ! ماذا قلت ؟

السيدةبوبوفا : قلت انك بهيم ، وحش !

سميرنوف : (مقتربا منها) اعذريني ، ولكن بأي حق تهينينني ؟

السيدةبوبوفا : أجل ، اني أهينك ، وماذا في ذلـك ؟ أتحسب أني أخافك ؟

سميرنوف : وأنت ، أتحسبين أن كونـك مخلوقـة شعرية يخول لـك الحق في أن تهيني الناس دون أن ينالك عقاب ؟ ايه ؟ اني أدعوك للمبارزة !

لوقـــا : رباه ! •• أيها القديسون ! •• ماء !

سميرنوف : لسوف نتبارز بالرصاص !

السيدةبوبوفا : أتحسب أنـي أخافـك اذا كنت تملك قبضتين واسعتين وحلق ثور قوي ؟ هه ، قل ؟ أنت ، أيها الثور !

سميرنوف : لسوف نتبارز ! اني لا أسمح لمخلوقأن يحقرني ، ولا يهمني أن تكوني امرأة ، واحدة من الجنس الضعيف •

السيدةبوبوفا : (تحاول منعه عن الكلام) دب ! دب ! دب !

سميرنوف : لقد آن الاوان لان نضع حدا لذلكالوهم القائل ان على الرجال وحدهم أن يدفعوا ثمن الاهانات •• ان المساواة في الحقوق هي المساواة في الحقوق ، أخذ الشيطان ذلك كله ! سوف نتبارز !

السيدةبوبوفا : بالمسدسات ؟ حسنا ، حسنا !

سميرنوف : الآن ، في هذه اللحظة •

السيدةبوبوفا : في هذه اللحظة ! لقد كان لزوجي بعض المسدسات •• سآتي بها سريعا ! (تخرج ولكنها ترجع سريعـا) يا للفرحة التي تسيطر على جوانحي عندما أودع رأسك الغليظ هذا رصاصة من مسدسي! أخذك الشيطان ! (تخرج) •

سميرنوف : سوف أرديها بطلقتي كما أردي بطـة صغيرة • لست طفلا ، ولا جروا صغيرا عاطفيا • وأنا لا أعترف بوجود مايسمونه « المخلوقات الضعيفة » !

لوقـــا : (الى سميرنوف) يا سيدي ، يا سيدي الكريم ! (يجثو على ركبتيه) اشفق على رجل هرم مسكين ، وقدم لي معروفا ـ واخرج من هنا ! لقد أخفتني حتى كدت أهلك من الرعب ، وها أنتذا الآن تريد المبارزة !

سميرنوف : (دون أن يعيره اهتماما) المبارزة ! انها المساواة في الحقوق ! انهـا التحرر من العبودية ! هنا يتساوى الجنسان ! سأطلق النار عليها باسم هذا المبدأ ! ولكن ، ياالها

امرأة ! (يقلدها) « أخذك الشيطان •• سأدرع رأسك الغليظ هذا رصاصة من مسدسي » • يا لها امرأة ! لكم كانت متحمسة ، ولكم تورد خداها !•• ولقد قبلت دعوتي الى المبارزة ! وربي ، انها المرة الاولى في حياتي أرى مثل هذه الصلابة •

لوقا : يا سيدي الكريم ، تفضل بالخروج ، وسأصلي الى الله من أجلك دائما وأبدا !

سميرنوف : انها امرأة حقيقية ! وهذا هو النوع الذي أفهمه من النساء ! امرأة حقيقية ! انها ليست من ذلك الصنف المائع المتصنع ، بل هي نار ، وبارود ، وشهاب مضيئة ! واني آسف اذ أود أن أقتلها !

لوقا : (باكيا) سيدي •• سيدي العزيز ، أرجوك أن تذهب !

سميرنوف : لقد أحببتها وفتنت بها ! نعم ، أحببتها ! وعلى الرغم من تلك البثور التي تملأ خديها ، فاني أحبها ! واني على استعداد لان أتنازل لها عن المطالبة بديني •• ولم أعد حانقا على الاطلاق •• يالها امرأة رائعة ! (تدخل بوبوفا تحمل المسدسات)•

السيدة بوبوفا : هذه هي المسدسات • لكن ، قبل أن نطلق النار ، أرجوك أن تريني كيفية استعمالها• فأنا لم أحمل مسدسا في يدي من قبل قط •

لوقا : أوه ، يا الهي ، كن رحوما بنا ! سأنطلق أبحث عن السائق والبستاني • من أين هبط علينا هذا البلاء ؟ (يخرج) •

سميرنوف : (يتفحص المسدسات) أنظري ، ان ثمة أنواعا عديدة من المسدسات • فهناك المورتيمر ، وهو خاص بالمبارزات ، وهو ذو كبسولة •• وأما هذه فمن نوع سميث وديسون ، وتستعمل من غير كبسولة •• انها مسدسات فاخرة • وان الزوج منها يساوي أكثر من تسعين روبلا •• يجب أن تقبضي على المسدس هكذا •• (على حدة) يالعينيها ! يالعينيها ! يالها امرأة تبعث النار في جوانحك !

السيدة بوبوفا : أهكذا يجب أن أفعل ؟

سميرنوف : أجل ، هكذا ، ثم ترفعين الغماز •• وتصوبين الى الهدف ، هكذا •• أرجعي رأسك الى الوراء قليلا ! ومدي ذراعك جيدا •• هكذا •• ثم تضغطين على هذا الزناد باصبعك ـ وهذا كل شيء •• والاكثر أهمية في ذلك كله ، هو أن تحتفظي بهدوئك ، وأن تصوبي بهدوء •• حاولي ألا تضطرب ذراعك •

السيدة بوبوفا : حسنا • لكن ، أرى أنه لا يليق بنا أن نطلق النار في الغرفة • فلنخرج الى الحديقة •

سميرنوف : هيا بنا اذن ، ولكني أحذرك أني سأطلق النار في الهواء •

السيدة بوبوفا : آه ، انها الخرافة الاخيرة ! وفيم ذلك ؟

سميرنوف : لاني •• لاني •• لان ذلك من اختصاصي وحدي •

السيدة بوبوفا : أأنت خائف ، ما ؟ آه ! آه ! آه ! كلا ، يا سيدي ، لا تحاول التهرب من ذلك ! تفضل واتبعني ! فأنا لن أرتاح حتى أفتح ثغرة في جبينك •• هذا الجبين الذي أبغضه كثيرا ! أخائف أنت ؟

سميرنوف : نعم ، خائف •

السيدة بوبوفا : أنت كذاب ! لم لا تريد المبارزة ؟

سميرنوف : لاني .. لانك .. لاني أغرمت بك ..

السيدة بوبوفا : (تضحك بمرارة) لقد أحبني ! انه يجرؤ على المجاهرة بذلك ! (تشير الى الباب) هذا هو الطريق !

سميرنوف : (يضع المسدس في هدوء ، ويحمل قبعته ويتجه صوب الباب ، وهنالك يقف برهة ، وهما يتطلعان الى بعضهما في صمت ، ثم يدنو منها ويقول في اضطراب) اسمعي .. ألا تزالين غضبى ؟ أنا أيضا أتفجر غضبا .. ولكن ، حاولي أن تفهميني .. كيف يمكنني الافصاح عما يعتلج في صدري ؟ .. ان الواقع هو .. كما ترين .. على هذا الغرار .. وهو أن .. هذا ما يقال . (يصرخ) حسنا ، أهي خطيئتي ان كنت أحببتك ؟ (يضغط على ظهر الكرسي ، فيقرقع ويتكسر) يا للشيطان ! ان أثاث منزلك سهل الانكسار ! لقد أعجبت بك ! هل تفهمين ؟ وأنا على وشك الوقوع في غرامك ..

السيدة بوبوفا : أخرج من هنا ، فأنا أكرهك !

سميرنوف : يا الهي ! يالها امرأة ! اني لم أر في حياتي كلها مثل هذه المرأة ! لقد ضعت ! لقد انتهيت ! لقد وقعت في المصيدة كالجرذ !

السيدة بوبوفا : أغرب عن وجهي ، والا أطلقت النار !

سميرنوف : أطلقي النار ! أنت لا تعرفين مبلغ السعادة التي تغمرني عندما أموت بالقرب من هاتين العينين الجميلتين .. أو أن أقتل برصاصة مسدس تقبض عليه هذه السيدة المخملية الصغيرة ! لقد فقدت صوابي وخرجت عن أطواري .. فكري في الامر ، ثم اصدري كلمتك عاجلا ، لاني ان خرجت الآن من هذا البيت فلن نرى بعضنا أبدا ! قرري الآن . اني صاحب أملاك ، وشخصية محترمة ، يتجاوز دخلي السنوي عشرة آلاف روبل .. واني لاستطيع أن أطلق النار على قطعة من العملة ألقيت في الهواء ، فأصيبها .. وأنا أملك بعض الخيول الممتازة . أترضين أن تكوني زوجة لي ؟..

السيدة بوبوفا : (تهز المسدس في حنق) فلنتبارز ! هيا ! احمل مسدسك !

سميرنوف : لقد فقدت صوابي . ولست أفقه شيئا.. (يصيح) أيها الخادم ! هات بعض الماء !

السيدة بوبوفا : (تصيح) هيا ! فلنتبارز !

سميرنوف : لقد جننت ، لقد وقعت في الحب كالصغير ، كالاحمق ! (يمسك يديها ، فتصرخ من الالم) . أحبك ! (يجثو على ركبتيه) أحبك حبا ما أحببت مثله من قبل قط ! لقد هجرت اثني عشر امرأة ، وتسع هجرنني . ولكنني لم أحب احداهن قدر ما أحبك الآن . اني أذبل . أني أذوب . اني أنصهر .. وهذا أنا الآن على ركبتي أجثو ، كالاحمق ، أطلب يدك .. واخجلاه ! واخجلاه ! اني لم أهو أحدا منذ خمس سنوات ، ولقد قطعت عهدا بذلك على نفسي . وفجأة وقعت في بركة الحب ، فجثوت على ركبتي ! اني أمنحك يدي - نعم أم لا ؟ ألا تريدين ؟ لا بأس ! (ينهض ، ويسرع نحو الباب) .

السيدة بوبوفا : انتظر لحظة !

سميرنوف : (يقف) حسنا ؟

السيدة بوبوفا : لا شيء . أخرج .. ولكن ، لا ، انتظر لحظة .. لا ، اذهب ، اذهب ! اني أكرهك ! ولكن ، لا .. لا تذهب ! أوه ، لو تدري كم أنا حانقة ، أنا ساخطة! (ترمي المسدس على الطاولة) لقد يبست أصابعي من هذا الشيء اللعين .. (تمزق منديلها في حنق) ماذا تنتظر ؟ أخرج من هنا !

سميرنوف : وداعا !

السيدة بوبوفا : نعم ، نعم ، أخرج ! .. (تصيح) الى أين أنت ذاهب ؟ انتظر لحظة ، لكن ، لا .. اذهب .. أوه ، لكم أنا حانقة ! لا تقترب مني ، لا تقربني !

سميرنوف : (مقتربا منها) شد ما أنا من نفسي غاضب ! لقد أصبحت كالتلميذ يتخبط في الحب . لقد جثوت على ركبتي .. (بخشونة) أهواك ! ما هذا الذي أرغمني على حبك ؟ غدا ، يجب أن أدفع الفوائد! ولقد بدأنا موسم الحصاد ، ولكن هذه أنت ! .. (يلف خصرها بذراعيه) اني لن أغفر لنفسي هذا العمل !

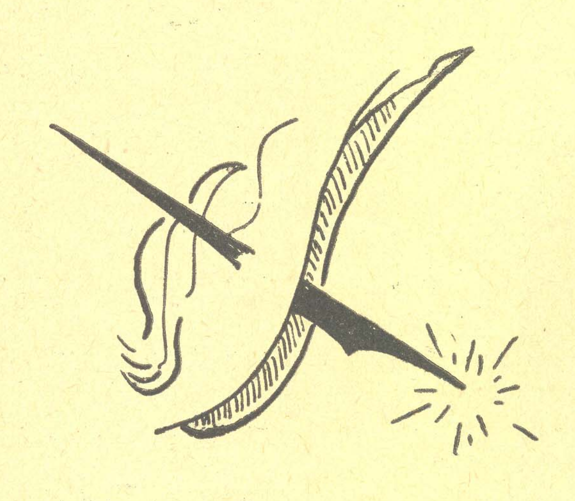
السيدة بوبوفا : ابتعد عني ! ارفع يديك عن خصري ! أنا ، أنا أكرهك ! هيا ، فلنتبارز ! (قبلة طويلة . يدخل لوقا يحمل فأسا ، والبستاني يحمل مجرفة ، والسائق يحمل شوكة حصاد ، وعدد من العمال يحملون قطعا من الخشب) .

لوقا : (يراهما متعانقين يقبلان بعضهما) رباه ! أيها القديسون ! .. (صمت) .

السيدة بوبوفا : (مخفضة من عينيها) لوقا ، قل لهم في الاسطبل ألا يقدموا لتوبي شيئا من الشوفان هذا النهار أبدا ..

(ستار)

ترجمة المحامي سهيل أيوب



وصايـة

(الى أيتام أمتي في ضياعهم الطويل)

شعر : جميل م. ن

ساءلتها ، من قبل أن أرتمي ... في حضنها .. بالهيكل المتعب

ساءلتها .. قلت : اصدقيني !. فما ... أسمع لا يرضي خيال الصبي

يا أم !. اني حائر ، لا أعي ... يا أم !. ان الكون يهزأ بي

في ألف لون ، ثم لم تستحي ... لونتها .. أكذوبة للغبي ،

أو هكذا قدرت ، لم تذكري ... معنى لفهمي الطفل ، لم تحسبي

أعجزت تفكيري .. على طهره ... مزقت احساسي ، ولم أغضب

والآن .. ما هذا الذي يغتلي ... في خاطري .. في الصبح ، والمغرب ؟

حدس .. أراه اليوم ، في لوعة ... يمتد بي للمرعب .. المرعب !.

الناس .. كل الناس معروفة ... أنسابهم ، الاي لم أنسب

والعار .. عاري في الضياع الذي ... أحيا به في حلكة الغيهب ..

من ، يا ترى ، يأسوه في بسمة ... لم تفتعل .. للغنم ، والمكسب ؟!

من ، يا ترى ، يروي حكاياتنا ... في صدقها .. في وعدها الطيب ؟!

وفي مطاوي الظن ، من يجتلي ... على رؤانا بعض ما نجتبي ؟!

حاولت تضليلي .. فوالوعتا ... من قبل ميلادي توفي أبي ،

وسرت في درب أليم الحصا ... خلفها في قفره المجدب ..

لم أجن منها غير ما أورثت ... أو غير ما ألقته في ملعبي !.

حتى الرفاق الزغب لم يجهلوا ... في موته أني به أختبي

وأنني اليوم ، كما وشوشوا   أسطورة للالم المخصب !.
وأنت ، يا أمي !. بلا رحمة   ملكت أمري آخرا أجنبي
وصاية فسرتها .. مثلما   أوهمت فيها ، شرعة للنبي
وكان ، ما كان .. فلا تحزني   ان كنت لما تفهمي مطلبي
واغرورقت عيناي ، واستسلمت   نفسي لجرح في الصميم الابي ..
ولذت بالصمت .. فيا للاسى   ان كان صنع الزمن القلب !.
في صمتي الموحش أمثولة   قد فسرت ، في نظرتي ، ماربي
يا أم !.. هذي ثورة في الحشا   أحملها في جرحي الملهب
يا أم !. قولي لي .. ألا يرتضي   ذو الكبر ، أن يحيا ولم ينسب؟!
أو يشهد الدنيا على قيده   أو عجزه في رأيه الاصوب ؟!
أقسمت ، يا أمي ، فلا تقبلي   وصاية الناس ، ولا تغضبي !.
أو .. لا ، فمن أهلي ومن عزوتي   فكلهم في يوم ضيقي .. أبي
وأقبلت أمي على محنتي ..   تهدهد الجرح ، ولم تعتب ..
قالت : تبصر !. فوقنا راية   من فوق هذا الافق الارحب
في ظلها نحيا ، فلا تبتئس   فخيرها .. كالمطر الصيب ،
وعزة ننشدها .. عندها   لم تسلب الناس ، ولم تسلب
وصايتي اخترت لها أمسها   واليوم .. من أجل الغد المذهب
فاقنع !. ولا تتهم !. فما عندنا   الا صفاء الدين ، والمذهب
وادفع بغشاشيك في جرأة   يا سعد !. هذي غاية المطلب
هم زوروا ، بالامس ، تاريخنا   واليوم .. لا ترجع ، ولا تذهب !.
واعلم يقينا .. أننا أسرة   لم تنتسب الا الى يعرب
آمنت أني بعد ذا سيد   فطرت في حلمي الى الكوكب
وعدت ، فاستغفرت ، في لهفة   أمي ، وكانت في علاها .. أبي (*)

(*) النشيد الاول من ملحمة تعد للنشر بعنوان : « ذكريات مؤلمة » .

دراسات في دوستويفسكي - ١

الحياة المأساة

بقلم : الدكتور فؤاد أيوب

ان دوستويفسكي ، هذا الكاتب الروسي الذي تعادل موهبته الفنية في قوتها موهبة شيكسبير وحده ، كما يقول غوركي ، يشكل بحد ذاته عالما كامل العناصر ، شاسع الابعاد ، عميق الاغوار ، تضطرم وتتصارع فيه الافكار والعواطف المتضاربة ، أفكار أضحت أقوى من البشر ، بل لم يعد البشر أنفسهم سوى تجسيد مادي لها ، وعواطف اختلط فيها الحب بالحقد ، والكبرياء بالتواضع ، والثورة بالاستسلام ، والرحمة بالقسوة ، والايمان بالافكار . ان القارىء ليكتشف هنا اللانهاية ، فيستولي عليه حيالها بادىء الامر شعور عميق بالقنوط ، شعور بأنه لن يستطيع قط أن يسبر أغوار هذا العالم لانه يكاد أن يكون غريبا علينا ، ولان **الرسالة التي** يبشرنا بها ليست منا ، بل هي تضيع في لانهاية سديمية تعمى عنها أبصارنا .

وليس القنوط وحده هو انطباعنا البدئي حيال هذا العالم ، بل الهلع أيضا . الى أين يريد أن يقودنا هذا العملاق ، هذا النبي ، هذا المستنير ، هذا الجبار الذي يصرعه الصرع ؟ لكننا لن نسير معه حتى خاتمة المطاف الا ويتحول انطباعنا البدئي السطحي الى شعور جديد ، شعور بعظمة لا متناهية هذه المرة . ذلك أننا سنكون قد حفرنا أعماقنا في هذه الاثناء ، وفي هذه الاعماق ، في خفاياها المطوية ، نكتشف الرباط الذي يجمعنا اليه . أجل ، يجب أن نفعل مثله ، أن ندفع الى الحد الاقصى ما لا نجرؤ عادة أن نبلغ به أكثر من منتصف الطريق ، وأن نتمرس بسائر صنوف العذاب التي تمرس بها ، وعندئذ فقط يمكننا أن نفهمه ، واذا ما فهمناه فسوف نحبه .

ذلك أن مختلف أدوات التعذيب تمزق هذا الجسد البالي طوال ستين عاما ، والحاجة التي لا ترحم تنتزع من صباه ومن شيخوخته جميعا كل عذوبة وكل بارقة رجاء . وان الرغبة لتلتهمه في الوقت نفسه ، رغبة مزدوجة ، روحية وجسدية معا ، تنخسه مثل الابر ، وتتركه ظمآن أبدا لا يرتوي له غليل . وفي يقينه أنه القدر يلاحقه ، يقسو عليه ، دائما يقسو كيما ينتزع منه الابداع .

وان الشك ليعذبه أيضا ، ومهما يبذل من جهود ومحاولات ، فلن يبلغ الى اليقين أبدا . ويخيل اليه هو الذي يتعثر في الالم مع كل خطوة ، ان الله يعاقبه من أجل شكوكه ، وما كان يعاقبه لولا محبته اياه . واذا ما غفى الطرف عنه برهة ، فابتسمت له الايام قليلا ، فما ذلك الا كي يعود مسرعا فيقذف به بين الاشواك ، ويدفعه نحو الحضيض ، فاتحا عينيه أكثر فأكثر على اتساع اليأس والاشراق على حد سواء . ولن يرحمه قط الا مع اغماضة الجفنين الاخيرة .

هذه القسوة الغزيرة بالمعاني تجعل من حياة دوستويفسكي أثرا فنيا قائما بذاته ، ومن حياته مأساة كاملة الفصول ، بحيث لا تعدو مؤلفاته جميعا أن تكون صورا متفرقة عن مصيره الذاتي . ولقد كانت بداية حياته نفسها رمزا لهذه الحياة كلها كما يقول ستيفان زفايغ ، اذ ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي في الثلاثين من تشرين الاول عام ١٨٢١ في مستشفى الفقراء في موسكو . وهكذا حدد له مكانه ، منذ فتح عينيه للنور ، في موضع خارج المجتمع ، بين اولئك الذين هم موضع الازدراء ، بين « المذلين والمهانين » ، وفي اتصال دائم

بالالم والموت معا . وهل المصير الانساني كله ، في واقع الامر ، الا تركيبا من الالم والموت ؟

كان أبوه طبيبا عسكريا معدما ، اذا قيست الثروة بمقاييس تلك الايام ، ترك الخدمة ليعمل في مستشفى الفقراء ، فنشأ الطفل في بيئة تعاني الضيق المادي ، وفي جو تسيطر عليه روح الثكنة التي لم يستطع الاب ، أو لم يحاول ، التخلص منها . ولعله كان يعاني ضجرا خبيثا ، ضجرا سببه العوز في المحل الاول ، مما جعل أخلاقه شرسة قاسية ، ومعاملته لزوجه وأولاده رديئة ظالمة . كان هذا الرجل يخجل من فقره ، فيعيش وعائلته في انطواء على النفس يكاد يضعهم خارج حدود الحياة ، فلا مسرح ، ولا نزهات ، ولا صداقات . وهكذا نشأ دوستويفسكي بعيدا عن كل احتكاك بالعالم الخارجي ، محروما من الاصدقاء ، ومن التجارب ، ومن الحرية ، ان الاناء مغلق باحكام على هذه النبتة المتعطشة الى الهواء ، ولسوف يدفعه هذا الحرمان طوال حياته : « نحن جميعا قد فقدنا عادة الحياة » . أجل ، ان دوستويفسكي لم يستطع قط ، فيما بعد ، أن يعتاد الحياة .

وان حاجزا حديديا مشبكا ليفصل حديقة المنزل عن باحة المستشفى الواسعة حيث يتنزه المرضى في ساعات النهار ، وقد ارتدوا مناماتهم وغطوا رؤوسهم بطاقيات قطنية . وكان فيودور يحب ، متجاوزا في ذلك أوامر أبيه ، أن يتعرف الى هؤلاء المرضى ، وأن يبادلهم الحديث من خلال الحاجز المشبك . ان هذه الانسانية المعذبة القبيحة لا تنفره ـ وهل عرف الانسانية حتى الآن الا على هذه الصورة ؟ ـ بل تثير في قلبه حنانا وفضولا وتجتذبه اليها . أجل ، ان هذا البورجوازي الصغير المتوحد يسعى الى صحبة هؤلاء الناس المقهورين ـ وهل أقهر من الفقر والمرض مجتمعين ؟ ـ الخجولين ، اليائسين ، المرفوضين من قبل عالم لا يعرف هو عنه شيئا ، ما هي مأساتهم يا ترى ؟ وأي قدر ظالم رديء أودى بهم الى هذه الحال ؟ وكيف يحسهم غير غرباء عنه ، رغما عن فارق السن والوضع الاجتماعي ؟ وكان الاب ، اذا فاجأ ولده في صلته مع هؤلاء المساكين ، يوبخه بشدة ، بله يعاقبه بقسوة أحيانا .

هذه الطفولة المخنوقة لا يتحدث دوستويفسكي عنها مطلقا ، ولا ريب أن هذا الصمت العنيد من قبله ينطوي على الخجل . بيد أننا نستطيع أن نلمس مشاعره الحقيقية من خلال أحاسيس أبطاله الصغار . لا بد أنه كان مثل نيللي ، هذه الصبية المرهفة الحس حتى الدرجة القصوى ، التي انتهى بها البؤس والحرمان والاضطهاد الى الصرع فالموت ، أو مثل ايليوتشكا ابن الكابتن السكير ، الذي يخجل من بؤس عائلته ، ومن تصرفات أبيه التي يمليها البؤس عليه ، فيموت كمدا وقهرا . أو مثل كوليا ، هذا الفتى الناضج باكرا ، الواسع الخيال ، المتأجج رغبة في الصيرورة شيئا عظيما ، المتشرب بذلك الهوس العنيف ، هوس دوستويفسكي نفسه ، الذي يريد من المرء أن يتجاوز نفسه كي يتآلم مع الانسانية بأسرها .

ويهرب دوستويفسكي من ظلمات هذا العالم الحالك ، ملتجئا الى حيث يلتجيء عادة سائر الناقمين ، الى الكتب . انه يقرأ ليل نهار ، ولا يرتوي له ظمأ ، يلتهم ولترسكوت ، وديكنز ، وجورج صاند ، وهو نمور ، حالما بأروع المغامرات ، بالسفر الى البندقية ، أو القسطنطينية ، أو البلدان الشرقية النائية حيث الاسرار التي لا حلول لها ، تراوده صور الانتصارات العظيمة ، وعواطف الحب المتفاني .

وتموت أمه ، مصدورة ، عام ١٨٣٧ ، فيفقد بفقدها سنده الروحي الوحيد في الحياة . وتجعل الحاجة منه جنديا فينتسب الى مدرسة المهندسين ، بيد أنه لا يبرح ، حتى في عالم الجندية الصاخب ، منزويا بعيدا عن الناس . ان خجله المرضي ، وما يؤدي اليه مثل هذا الخجل من حب مفرط للذات وانطواء متصل عليها ، يبعد الرفاق عنه . انه يتلهب شوقا الى بذل الذات ، الى منحها لاول قادم ، لكنه يعود منذ الوهلة الاولى فيتكوم على بعضه . انه يخاف أن يعيش . وماذا يجمع بين هؤلاء الفتيان

المرحين اللعوبين وبينه هو الذي تئيد كآبـة ثقيلة على وجوده ؟ ومـا وجـه الشبه بين مطامحه الرومانطيكية ورغباتـه الغامضـة في المجـد والعظمة وبين التصرفات السخيفة لزملائه ؟ ان مثل هذه الحياة لتنفره : « لقد أرسلوني مع أخي ميشيل ، البالغ السادسة عشرة ، الى سان بطرسبورغ ، الى مدرسةالمهندسين ، وبذلك أفسدوا مستقبلنا ، تلك كانت خطيئة بالنسبة الي » • ويخاطب أخاه ميشيل في احدى رسائله قائلا : « ان الحياة مثيرة للاشمئزاز هنا ، ان ما خلص من المادية ومن السعادة الارضية هو وحده جميل » • بيد أن سائر ما يجري حوله وجميع تصرفات زملائه تذكره بهذه « المادية » وهذه « السعادة الارضية » بالضبط • الوصول ، الارتقاء في الرتب ، المستقبل الزاهر •• وهو ، أتراه يفكر في مستقبله ؟ انه يتيه في الاروقة ، وحيدا ، يائسا ، مظلم القسمات ، في يده كتاب ، يتجنب الطلاب والاساتذة على حد سواء • لكنه يقوم في الوقت ذاته بالواجبات المترتبة عليه خير قيام ، فهو مجد ، ينفذ كل الاوامر الصادرة اليه ، ولا يحتج مطلقا : « كائن يعتاد كل شيء ، هذا في رأيي أفضل تعريف يمكن أن يعطى عن الانسان » •

لكن أصعب ما يعانيه هو العوز • فلتمطر السماء ، وهو لا يملك ما يبتاع به كأسا حارة من الشاي وبعض الملابس الداخلية الدافئة • فلتحرق الشمس الارض ، وهو لا يملك أن ينظف جسده من العرق الناتج عن القيظ الشديد • وان أباه الذي ترك عمله في المستشفى ليقيم في الملكية الصغيرة التي ابتاعها في الريف بفضل تقتيره ، لا يبرح على بخله القديم الذي أضيف اليه حاليا تعشق شديد للخمرة ، وقد رفع بينه وبين العالم ، لما فيه أبناؤه ، حاجزا لا سبيل الى اجتيازه • ويتوسل فيودور اليه : « ارسل لي شيئا ، بأسرع وقت ممكن ، وسوف تنقذني من جحيم لا يطاق ! أواه ، ما أفظع أن يكون المرء في حاجـة !• » ومرة أخرى : « يا أبي العزيز الطيب ، لا تحسب أن ابنك يطالبك بشيء فائض حين يسألك معونة حالية •• ان لي رأسا ، وذراعين • ولو كنت طليقا لما سألتك كوبيكا واحدا •• كنت أعتادالبؤس اذن • لكن تذكـر يا أبتي العزيز أني في هـذا الوقت « أقوم بخدمتي » بكل معنى الكلمة ، ولا بد لي شئت أم أبيت أن أتكيف مع قواعد المجتمع الذي أعيش فيه •• وبالفعل ، فان حياة المعسكر تكلف كل طالب ٤٠ روبلا على الاقل (اني أكتب اليك كل ذلك لاني أتحدث الى ابي) ولست أحسب في هذا المبلغ قيمة السكر والشاي • ومع ذلك ، فهذه أشياء لا غنى عنها ، حين يكون المرء مبتلا بالامطار حتى عظامه ، تحت خيمة من القش ، أو حين يعود من تدريب مضن ، فتجمد أطرافه من البرد ولا يجد قليلا من الشاي ، فانه قد يقع مريضا ـ وهذا ما جرى لي في المناورات في العام الفائت • ومهما يكن من أمر ، فاني سآخذ بعين الاعتبار ما تعانيه من ضيق وأستغني عن الشاي ، انـي سأطلب منك الضروري فحسب •• ما ابتاع به زوجين من الاحذية العادية » •

الا أن الاب لا يعير طلباته أذنا صاغية ، بل يعاتبه ويعنفه لجرأته على رفع صوته أمام أبيه ، ويروح يشكو الضيق المادي الشديد ، مدعيا أنه لا يملك هو نفسه فلسا واحدا • ويتعاظم يأس فيودور أكثر فأكثر : « من المحزن أن يحيا المرء دون رجاء يا أخي •• اني أنظر أمامي ، فأرتاع للمستقبل • واني لغارق في جو جليدي، قطبي ، حيث لا يلمع شعاع شمسي واحد • ومنذ زمن طويل لم أعرف همهمات الالهام ، وبالمقابل فما أكثر ما عانيت أحاسيس سجين شيللون في زنزانته ، بعد موت أخوته••» ومرة أخرى: « لا أدري ما اذا كانت أفكاري الكئيبة ستتبدد يوما •• ان لدي مشروعا •• أن أصبح مجنونا •• »

انـه تائه ، تائه في دروب الحياة المظلمة ، يقرأ بلزاك وغوتـه وشيللر حينا ، ويرتمي في تيـار الحياة الصاخب حينا ، محاولا أن يقتـل يأسـه بالانغماس في الرذيلة • بيد أنه يظل ، حتى في أمواج الرذيلة المتلاطمة، وحيدا دوما ، اللهم الا من حس الاشمئزاز من لذته العابرة ، ومن الشعور بالخطيئة في ملء السعادة الكاذبة•

انه مثل سائر أبطال كتبه ، وحيد لا صديق له ، ومثلهم جميعا يحلم ، ويفكر ، ويتذوق رذائل الفكر والحواس على حد سواء • ويعزيه قليلا ما يحسه من أن فيه قوة كامنة ، قوة توشك أن تنفجر ، وهو يخاف منها • انه يرقة لا تبرح عديمة الشكل ، ولا يدري الام ستصير ومتى ستصير • انه فريسة التشاؤم ، طريد الخوف من الحياة ، والخوف من نفسه ، والخوف من الموت ، والخوف من الفوضى الهائلة السائدة في قلبه •

وفي ملء هذه الفوضى يأتيه خبر مقتل أبيه على يد بعض فلاحيه الذين لم يطيقوا صبرا على معاملته الفظة • قبل شهر واحد من ذلك كان قد كتب اليه يطالبه بمبلغ من المال دون أن يتلقى جوابا ، ومما لا ريب فيه أنه كان يلعن كل ليلة بخل هذا الاب وقسوة قلبه ، ولعله كان يتمنى موته في نفس تلك الليلة التي قتل العجوز فيها • أفلم يهتف ايفان كارامازوف ، ولعله يعبر في ذلك عن مشاعر دوستويفسكي نفسه : « من منا لم يتمن موت أبيه » ؟ وتنعكس جريمة الفلاحين القذرة في وجدان فيودور ميخائيلوفيتش ، فيتهم نفسه بما لم ترتكبه يداه قط • انه هو المسؤول الاول عن هذه الجريمة ، ومسؤوليته لا يمكن أن يفهمها أحد سواه ، وهي جسيمة بحيث تبتلع مسؤوليات الآخرين • انه مذنب بصورة تتجاوز القوانين البشرية • ويهزه هذا الكشف بكل قسوة الحقيقة الواقعة ، فاذا انتفاضة هائلة تنفضه وتصدعه أرضا ، مزبدا متحشرجا : تلك هي نوبة الصرع الاولى منذ كان في السابعة من عمره • ولن يتحدث في رسائله عن حادث القتل مطلقا ، لكن أبطاله يتحدثون نيابة عنه بطلاقة عجيبة • ان ايفان لم يقتل أباه ، ومع ذلك فانه مقتنع بكونه القاتل الرئيسي ، كما يعالنه بذلك الاجير سميرديا كوف الذي يعتبر نفسه مجرد الاداة المنفذة ، ولا يفعل ايفان شيئا لينفي عنه هذه التهمة • وكذلك يقبل ستافروغين ، « الابالسة » مسؤولية قتل زوجته التي ذبحها شخص آخر • ان قبولا ضمنيا ، مهما يكن غير داع ، يكفي ليجعلنا شركاء في الجريمة • « أكنت أرغب في موت أبي حتى هذه الدرجة ؟ » وان هذا السلطان الغريب الذي يتمتع به الفكر على المادة ، وهذا التجاوز للمادة من قبل الفكر ، ليئيدان على ذهن دوستويفسكي • أجل ، ان هناك نواميس الطبيعة واستنتاجات العلوم الطبيعية ، كما أن ثمة تراكيب العلوم الرياضية الباردة ، بل والقوانين الاجتماعية الجامدة أيضا • وانها لتتراكب جميعا كي تشكل « جدارا حجريا » عاتيا • وما العمل حيال هذا الجدار ؟ « من المؤكد أني لن أحطم جبيني على هذا الجدار الحجري ، لكني لن أستسلم لمجرد كونه جدارا حجريا • ولن يستسلم دوستويفسكي ، بل سيحاول أن يتخطى ذلك الجدار • واما يتخطاه ، فانه سيقع في ميدان لا منطقي هو الموطن الحقيقي لابطاله ، ميدان عجيب ، لا هو بالواقع ولا هو بالعدم ، حيث الابرياء وفقا للقوانين الارضية هم مذنبون وفقا لقوانين أخرى غير مخطوطة ، وحيث الافعال لا تتعلق بفاعليها ، وحيث المشاعر تقوم مقام الادلة ، وحيث الافكار تتبخر ، وحيث لا يوجد شيء ثابت ، مؤكد ، معروف سلفا • ان كل طعنة جديدة يوجهها اليه القدر ستبعده أكثر فأكثر عن الواقع كي تقربه أكثر فأكثر من السر الدفين : « ثمة أشياء يخشى المرء أن يكشفها حتى لنفسه » •

ومهما تبين الاب بخيلا ، فقد كان يرسل الى ولده بعض المال من وقت لآخر ، أما الآن فلا بد له أن يلجأ الى الغرباء في حاجته • وتتراكم عليه الديون مع مرور الايام ، يحاول أن يفيها بديون جديدة ، مناضلا ، متذللا ، متوسلا كي لا يسحقه تيارها الجارف • بيد أنه لا يعرف ، مع ذلك ، أية قيمة للمال ، واذا وجد أن خادمه ، أو خياطه ، يسرقانه لم يأبه للامر مطلقا ، الم يطرد الخادم أو يغير الخياط • وينكب على «اوجيني غرانديه» يترجمها في محاولة يائسة لتحسين أوضاعه المالية : « ترجمت أوجيني غرانديه لبلزاك • يالها من رائعة ! ان ترجمتي مدهشة ، وأقل ما يدفعونه لي ثمنا لها هو ٣٥٠ روبلا ورقيا • ان بي رغبة لاهبة في بيعها ، لكن المليونير المقبل الذي هو أنا لا يملك مالا من أجل نسخها ، ولا وقتا

أيضا . بحق ملائكة السماء ، أرسل ٣٥ روبلا ، أجرة النسخ .. » وبعد ستة أشهر : « اذا توانى الخنازير الموسكوفيون ، فقد ضعت . ولسوف يجرونني في كثير من الجد الى السجن . يا له من وضع مضحك حقا . انك تتحدث عن القسمة الهائلية ، ولكن أتعرف ماذا أطلب ؟ التنازل عن كل مشاركة حالية في حقوق الملكية، والتنازل التام عند حلول الساعة ، مقابل ٥٠٠ روبل نعني دفعة واحدة ، وخمسمائة روبل آخر تدفع على أساس عشرة روبلات من الفضة شهريا ـ هذا كل ما أريده .. اعترف بأنه قليل ، وبأني لا أسرق أحدا .. واذا كانوا لا يملكون هذه الامكانيات ، فان سبعمائة وحتى ستمائة روبل تكون مناسبة في وضعي . وقد أرجع بعد عن رأيي ، اكفلني أنت .. وان لدي أملا ، فأنا أنهي رواية في حجم أوجيني غرانديه ، انها رواية نسيج وحدها ، وأنا حاليا أنسخها ، ولا ريب أني سأحصل على جواب بشأنها حوالي ١٤ كانون الثاني . سوف أعطيها الى « حوليات الوطن » . اني راض عن عملي ، وسأتناول عنه حوالي ٤٠٠ روبل . هذه كل آمالي ! »

تلك هي « المساكين » ، هذه الرائعة ، هذه الدراسة العميقة للنفس الانسانية ! ن دوستويفسكي في الرابعة والعشرين حاليا ، ولقد كتبها ، هو الوحيد ، بنار هواه المحرقة وبدموعه اللاهبة . ذلك أن الاذلال الاقسى الذي يمكن أن يتعرض له الانسان ، ألا وهو الفقر ، قد أوحاها اليه ، تدعمه القوة العظمى في هذا العالم ، أعني بها حب أولئك الذين يتعذبون .

بيد أنه يتطلع الى هذه الصفحات بشيء من الخشية، لا يريد أن يسأل القدر لانه يخاف الحكم الذي قد يصدره ، وأخيرا يقرأ المخطوطة لصديقه وشكيه في الغرفة ، الكاتب غريغوروفيتش ، فيرتمي هذا بين ذراعيه باكيا ، ويختطف المخطوطة منه ليحملها الى نيكراسوف . ويقرآنها معا ، الليل بطوله ، يضحكان حينا ويبكيان أحيانا ، حتى اذا لم يعودا يستطيعان صبرا ينطلقان الى صاحبهما ، حوالي الرابعة صباحا ، يوقظانه من نومه يهنئاه ويقبلاه ، لان ذلك « أهم من النوم » .

ويحمل نيكراسوف المخطوطة الى بيلنسكي ، الناقد الشهير ، المرهوب الجانب ، الباني لامجاد الكتاب الروس والهادم لها : « لقد ولد لنا غوغول جديد » . فيرد الناقد باستنكار : « ان أمثال غوغول عندكم ينبتون مثل العظوز » . لكنه يقبل أن يطلع على المخطوطة ، حتى اذا ذهب اليه دوستويفسكي في الغداة شاهده مشرقا بالفرح : « هل تدرك ماذا صنعت هنا ؟ » ويلتهب بيلنسكي حماسة : « انك لم تكتب مثل هذا المؤلف الا لانك بكل بساطة فنان عظيم الحساسية ، ولكن هل قدرت كل سعة الحقيقة الرهيبة التي وضعتها لنا ؟ يستحيل أن تكون قد فهمتها وأنت في العشرين من عمرك .. ان الحقيقة تكشف لك وتعلن بوصفك فنانا ، أنت تلقيتها هبة ، فاعرف كيف تقدر هذه الهبة . ابق أمينا لها ، وسوف تصير كاتبا عظيما » .

ويصعق دوستويفسكي ، وينتشي ، ويصيبه الدوار ، انه يريد أن يقبل كل الناس ، وأن يشكرهم ، وأن يقسم للبشر جميعا صداقة أبدية . ويهبط الدرج مترنحا كأنه في حلم ، ويتوقف عند زاوية الشارع عاجزا عن متابعة السير ، يتطلع الى السماء ، والى صفاء النهار ، والى المارة الذين يخيل اليه أنه لم تعد تجمعهم به أية رابطة . ألم يرتفع الى الاعلى منهم بصورة مفاجئة ؟ ويتساءل : « أيمكن أن أكون حقا على هذا القدر من العظمة ؟ » أجل ، انه ليشعر الآونة بكل وضوح أن سائر تلك الاشياء الغامضة الخطيرة التي انبثقت من فؤاده هي أشياء عظيمة حقا ، ولعلها بالضبط ذلك « الشيء العظيم » الذي كان يحلم به في طفولته : الخلود ، والعذاب من أجل الانسانية بأسرها . ويتعثر في مشيته ، يمتزج في دموعه الهناء والالم جميعا .

وهذا هو ، بين عشية وضحاها ، وبطرسبورغ المثقفة كلها تعرفه ، والضواحي أيضا . ولقد أنقذه كتابه نوعا ما من ضائقته المادية ، اذ تناول عنه ٥٠٠ روبل ما أسرع أن ابتلعتها ديونه العتيقة والجديدة معا . وهذا

هو ذات صباح مدين بستمائة روبل . ما العمل ؟ « ان المرء ليمل في هـذا العالم ياسادة ! مـا عسى أن يكون المستقبل ، يا ترى ؟ » ان هذا المجد الجديد يشكل في الوقت ذاته الحلقة الاولى في السلسلة التي ستقيده الى العمل الاجباري ، والابداع لن يكون بالنسبة اليه ، من الآن فصاعدا ، الا واسطة لكسب المال ، ودفع الديون ، والخلاص من السندات ، رغما عن كل محاولاته لانكار ذلك . ولن يكون كل كتاب جديد الا رهينة لسلفة مالية تلقاها ، فالجنين مرهون للعبودية منذ الحمل به ، بل قبل الحمل به أيضا . وهذا دوستويفسكي قد حبس الى الابد ضمن جدران سجن الادب ، لن يحرره سوى الموت وحده .

ولو أنه كان انسانا آخر ، لو كانت أعصابه أقل ارهاقا ، وحبه للانسانية أقل عنفا ، فلعله كان يستطيع أن يعيش حياة هادئة ، وينتج في جو من الدعة والهدوء.. بيد أن شيطانه يدفعه دون هوادة ، أو قل هو القدر يقف له بالمرصاد ، ان الحياة لا يمكن أن تكون بمثل هـذا اليسر ، بل ان حياة سهلة على هذا الغرار هي حياة ميتة. أما هو ، فيجب أن يعرف الحياة حتى أعمق أعماقها .

ما باله ؟ ان صالونات بطرسبورغ مفتوحة لـه ، وبيلنسكي لا يدري كيف يكيل المديح له ، وتورجنيف يبدي له كل عطف ومحبة ، والجميع من حوله يرددون كل كلمة تسقط من فيه . بيد أنـه يشعر بالضيق ، ويدفعه هذا الاحساس الى الانطواء ، والتكبر . انه يحس أن مكانه ليس ههنا ، بين هؤلاء القوم السعداء ، الاثرياء ، الرافلين في أبهى الحلل ، غـير العارفين كيف يزجون الوقت . انه غريب بينهم ، يهاجمهم خوفا أن يهاجموه ، ولا يفكر طوال الوقت الا في الفرار بأسرع وقت والعودة الى غرفته الصغيرة ، السيئة الانارة ، الغاصة بدخان التبغ المزدحمة بالكتب والاوراق . ان الوحـدة هي ملجأه الوحيد .

وانه ليتخبط في بؤسه ـ هذا البؤس الذي أصبح مركب نقص بالنسبة اليه ـ ويريد أن يتحرر منه . انه لمقتنع بأنه لا بد في سبيل ذلك من فعل اجتماعي يحرره مع سائر اخوته المعذبين في الارض ، بحيث تمنحه هذه الحرية أخيرا الثقة بالنفس ، والايمان بالمستقبل ، واليقين بالقدرة على فعل الخير ، هو الـذي تضيع عليه فوضى حياته كل خير .

وهكذا ينضم الى حلقـة بتراشيفسكي الثورية ، حالما بتحرير روسيا الام من القيصرية والعبودية والفقر، ورفع البائسين فيها الى مستوى انساني حقا . وانه ليقرأ في اجتماعات « الثـوار » السرية صفحات من الشـعراء الروس الكبار ، ورسالة بيلنسكي الى غوغول ، ويخرر « اتهامات » ضد النظام القائم ، بل يكاد أن « ينزل الى الشارع حاملا علما أحمر » .

وهـذا هو ذات صباح موقوف بتهمة التآمر على سلامة القيصر .. وتنطبق عليه جدران زنزانة ضيقة في قلعة بطرس وبولس طوال أربعة أشهر ، ثم يصدر عليه مع رفاقه الحكم الصاعق : الاعدام رميا بالرصاص .

ويخيم الموت بجناحه عليه .. انه يساق مع تسعة من رفاقه مع خيوط الفجر الاولى ، وقد رميت الاكفان على أكتافهم ، الى ساحة سيميونوفسكي حيث يقيدون الى العمد وتغطى عيونهم . هذه هي آخر مرة يرى فيها نور الحياة ، وفي هذه الثانية القصيرة ، مع انطلاق الرصاص الغدار ، يتركز مصيره كله . انه يصغي الى قرار الحكم يتلى عليه ، والى الطبول تقرع لحن الموت ، بيد أن رغبته في الحياة متجمعة ، بكل قوتها الجارفة ، في تلك البرهة من الانتظار ، انتظار الموت ، في تلك الفترة التافهة من الزمان الذي لا حدود له . ولكن هذا الضابط المكلف بتنفيذ حكم الموت يلوح بمنديل أبيض في يده ، فتتوقف الطبول عن القرع ، ويخيم صمت رهيب على الساحة . أهو صمت الموت ؟ كلا ، بل هذا قرار الرحمة القيصرية يتلى عليهم ، مبدلا حكم الاعدام بالاشغال الشاقة في سيبريا لمدة تسعة أعوام .

وتتلقفه الهاوية . ان الفا وخمسمائة وتد خشبي تشكل طوال أربع سنوات حدود أفقه ، وهو يعد عليها

الايام الباقية له في السجن . ان رفاقه ههنا ـ وقد كانوا في بطرسبورغ نيكراسوف وبيلنسكي وتورجنيف ، قتلة ومجرمون ولصوص ، وبعض البولونيين الذين يكرهون كل ما هو روسي ، وهؤلاء جميعا يمطون عليه ، هو المثقف والسجين السياسي ، صداقتهم الرخيصة . وان عمله ، هو الذي صنع « المساكين » ، صقل الرخام ونقل الاجر ورفع الثلوج . ههنا ليس له من رفيق سوى الكتاب المقدس ، وقد دفعته بين يديه على الطريق الى سيبريا محسنة طيبة وفي طيات أوراقه ورقة من فئة الخمسة وعشرين روبلا ، وليس له من أصدقاء سوى كلب جربان ونسر مكسور الجناح ، مثله . وتتوالى عليه نوبات الصرع : « كنت أشرب الشاي ، وآكل أحيانا قطعة اللحم الخاصة بي ، وهذا ما أنقذني . وان انهيار أعصابي قد أدى الى اصابتي بالصرع . اني أحيا في تهديد دائم من العقاب ، والقيود ، في خنق دائم للفكر . الام صارت نفسي ، ومعتقداتي ، وذكائي ، وقلبي ؟ ذلك حديث طويل جدا . بيد أن التركز الابدي في ذاتي حيث كنت أهرب من الواقع المرير قد حمل ثماره » . ويبقى هكذا أربع سنين في « بيت الموتى » ، في الجحيم ، ضائعا بين الاخيلة ، مجرد رقم ليس غير ، قد انكرت عليه سائر صفات الانسانية على الاطلاق .

وحين رفعت القيود أخيرا من قدميه ، وأدار ظهره الى تلك الاوتاد ، لم يعد الشخص نفسه . لقد ذهب مجده هباء ، ولم يعد ثمة من يذكره في بطرسبورغ ، وقد دمرت صحته ، فنوبات الصرع تنتابه على أشد ما يكون ، لكن فرحته بالحياة بقيت له ، بل زادت تأرثا في جسده الناحل المروض . ولا تبرح أمامه سنوات أخرى يقضيها في سيبريا ، جنديا بسيطا بادىء الامر ، ثم ضابطا برتبة ملازم ثان ، بعيدا عن الجو الادبي ، ممنوعا من نشر أي مؤلف . الم يكن البعد عن روسيا عذابه الوحيد ، بل ان عوز المال يلاحقه دائما . أيحب أيتزوج ، لكن الزواج يكلف في حسابه ستمائة روبل . ومن أين له هذا المبلغ ؟ ويمد يده ، ويستجدي : « اني أتعرف بجبينك فكأنه جبيني ، لكن السبب في ذلك جهلي بأوضاعك المالية . ان فيليبوف قد أهداني خمسة وعشرين روبلا فضة » . وانه ليكتب أثناء ذلك ، بل ينشر أحيانا بأسماء مستعارة ، لكنهم لا يدفعون له كما ينبغي : « أنا لا أجهل أني أكتب بصورة أسوأ من تورجنيف ، وآمل ألا أظن كذلك في المستقبل . ولماذا لا أنال ، أنا الفقير جدا ، سوى مائة روبل عن كل ملزمة مطبوعة ، بينما ينال تورجنيف ، وهو رجل غني يملك ألفي نفس ، أربعمائة روبل عن كل ملزمة ؟ ان فقري يجبرني على السمة أبدا . اني أكتب من أجل المال ، وأفسد عملي بحق يسوع ، أنقذني » .

ويعود الى بطرسبورغ وقد نسيه الناس ، وهجره رفاق القلم ، وتبعثر أصدقاؤه . وفي العاصمة لا بد له أن يعيش ، ولا بد من المال في سبيل ذلك . ولذا يجب أن يكتب ، أن يشرع القلم ، منفسا بذلك في الوقت نفسه عن نشوة الحرية التي تعبىء طاقته العصبية .

ويرسل كتابه عن « بيت الموتى » ، هذه اللوحة الخالدة عن حياة انسان في سجن الاشغال الشاقة ، عاصفة من الحماسة في كل روسيا وينتزعها من لامبالاتها الناعسة . ان الامة بأسرها تكتشف أن السطح الساكن الهادىء للعالم الروسي يخفي عالما آخر ، عالما يكدس كل العذابات الممكنة . ويبلغ لهيب الاتهام حتى الكرملين نفسه ، فيروح القيصر نفسه ـ ويا للسخرية ! ـ يسقي صفحات الكتاب بدموعه . وهذا اسم دوستويفسكي من جديد على كل لسان : ان سنة واحدة قد كانت كافية لبعثه ، لارجاع اكليل الغار الى جبينه أعظم بها ، منه قبلا . ويؤسس مع أخيه مجلة هو محررها الوحيد تقريبا ، فتنال نجاحا عظيما . أليس مؤلف « بيت الموتى » من ورائها ؟ وانه لينهي رواية في الوقت نفسه . أفليس من حقه أن يطمئن الآن ، وقد ابتسم القدر له قليلا ، وأصبح مستقبله في أمان كما يبدو ، وثروته مؤكدة من اليوم ؟

ولشد ما كان مخطئا . ان كل شيء يتهدم وينهار في لحظة واحدة ، اذ تمنع المجلة دونما سبب ، وتموت

الزوجة وقد كانت مريضة على الدوام ، ويلحق بها الاخ ، هذا الصديق الوفي والناصح الامين ، فتراكم الديون من جديد ، ديونه الخاصة وديون الاخ الراحل، فينحني ظهره تحت وطأة هذه الضربات المتلاحقة وان ظل يناضل بتلك القوة التي يبعثها اليأس في الانسان ، فيشتغل ليل نهار ، يكتب وينسخ بيده كي يقتصد أجرة النسخ في محاولة يائسة لتسديد الديون وانقاذ شرفه وسمعته .

بيد أن التيار أقوى من أن يستطيع مقاومة له ، فيفر الى أوروبا ورفيقه الوحيد فتاة في العشرين ، عدمية العقيدة ، قد أعجبت بموهبته وتيم بهواها . وهذا هو تائه في دروب العالم الاوروبي الغريبة ، بعيدا عن الوطن الام حيث تغرق جذوره ، يعذبه الحنين الى روسيا ، الارض المقدسة ، مصدر حياته وينبوع الهامه ، وان الحاجة لتلاحقه ههنا أيضا دونما هوادة ، تدفعه نحو مائدة القمار حيث يغامر بكل شيء ، متحديا قدره . ولكن هيهات أن يواتيه الحظ ، فالهوة تحت قدميه لا تزداد الا اتساعا .

انه مجبر على الحياة في بلاد أجنبية لا يحبها ، بل يبغضها ويبغض سكانها أيضا ، لا يعرف فيها أحدا ولا يعرفه أحد ، وحيدا تماما بعدما هجرته عشيقته ، محاطا بطغمة من البقالين وأصحاب الدكاكين الالمان الذين لا يفقه كلمة واحدة من حديثهم ، مقيما في غرفة حقيرة ، طعامه الرئيسي الشاي ، وبذلته المهترئة لا يملك بديلا لها ، وألبسته الداخلية قذرة لا يملك أن يخلعها ، لانه لا يملك سواها ، يقصد المقاهي طلبا للدفء وقراءة الصحف الروسية ، أو موائد القمار طلبا « للمائة ألف فرنك » ، يربح حينا ويخسر أحيانا ، ويعود دائما في آخر الليل وقد نقصت محفظته بضعة روبلات ما كان أعظم حاجته اليها ، أو يقف الساعات الطوال أمام شباك المصرف ، ينتظر حوالة مالية كتب من أجلها عشرات رسائل السؤال المهين الى عشرات الاشخاص الذين لا يردون عليه ، أو يذهب الى محلات الربا ، يرهن ساعته أو بعض أثاثه القليل أو ثيابه لقاء دريهمات قليلة تقيم أوده ، أو تشبع حنينه المحرق الى الاحمر والاسود .

« لقد كنت أسود حالا في سيبريا ، في السجن » .

وانه ليشتغل طوال النهار والليل دونما كلل ، بينما الصرع يصعقه دونما رحمة ، وأحيانا أكثر من مرة واحدة في اليوم ، ثم يتركه أياما بكاملها في حالة من الخدر التام ، لا يستطيع الى مجرد الحركة البسيطة سبيلا . لكنه لا يكاد يحس دبيبا من القوة في جسده حتى يزحف من جديد الى مكتبه . ان العمل هوخلاصه الوحيد ، وهو سبيل العودة الى الوطن . انه يكتب « الجريمة والعقاب » و « الابله » و « المقامر » و « الابالسة » ، هذه الآثار التي هزت القرن التاسع عشر، ولا تبرح غذاء روحيا غنيا لعشرات الملايين في القرن العشرين .

وأخيرا ، في ساعة الحزن الاعظم ، تأتيه رحمة الاقدار . انه في الثانية والخمسين ، لكنه قد عانى خلال هذه السنوات القليلة قرونا من العذاب . ولقد مهدت له كتبه أن يعود الى وطنه ، اذ كسفت تولستوي وتورجنيف، وجعلت عيون روسيا كلها تتجه اليه . ان « مذكرات كاتب » قد جعلت منه رسول بلاده ، وهو حاليا يكرس قواه وكل فنه فيما يمكن تسميته وصيته الاخيرة : « الاخوة كارامازوف » .

ان البذرة قد آتت ثمارها ، ولم تيبس وتمت . ذلك انها بذرة حية قد القيت في تربة خصيبة جدا . ويوم تداعى الكتاب الروس الى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد الشاعر الاكبر بوشكين ، استقبل الجمهور دوستويفسكي ، اما انحنى بوجهه الرمادي المتعب ، المحفور بسنوات العذاب الطويل ، بعاصفة حادة من التصفيق ، بعد ما كان استقباله بالامس لتورجنيف ، أول المتحدثين ، فاترا نوعا ما . ووقف ينتظر ، وبين أصابعه العقدة أوراق محاضرته ، حتى اذا استمر الهتاف طويلا رفع يده يلوح بها بخراقة ، يطلب الهدوء ، ثم بدأ حديثه بصوت لاهث راح يرتفع شيئا فشيئا حتى سيطر على

القاعة الواسعة الارجاء . من أين واتته القوة ، هو العجوز المنهك القوى ، على الصراخ بكل هذا العنف من أعلى المنبر ؟ وأية قوة عجيبة تكهرب هذا الجسد وتلهب تلك النظرة ؟ انه يعلن ، بواسطة بوشكين ، عن الرسالة المقدسة لروسيا ، رسالة المصالحة العمومية . وفي الحقيقة ، من هو بوشكين ؟ ان بوشكين هو تجسد الروح القومية مع قابليتها العجيبة لالتقاط عبقريات الشعوب الاخرى . ان بوشكين هو روسيا بما تتضمنه من شمول ، فهو اسباني في « دون جوان » ، وانكليزي في « الحفل أثناء الطاعون » وألماني في « مقطع من فاوست » وعربي في « محاكاة القرآن » وروسي في « بوريس غودونوف » . ولان بوشكين هو كل هذا ، لانه يعرف كيف يكون كل هذا ، فهو روسي . ان مغزى الانسان الروسي هو قبل كل شيء مغزى أوروبي وعالمي ، فان يكون المرء روسيا حقيقيا ، أن يكون روسيا كليا ، ذلك انما يعني أن يكون أخا لسائر البشر ، انسانا كليا اذا جاز التعبير . وان سائر شعوب الغرب القديمة عزيزة على الشعب الروسي الفتي ، ولسوف ينقذها ، لانه سيظل بفضل سذاجته الرائعة الملجأ الاخير للمسيح : « لم لا نكون نحن الذين نحتوي الكلمة الاخيرة للمسيح ؟ » .

ان القاعة بأسرها ترتعش تحت انفجار الغبطة المنطلق من الجمهور المستمع ، ويخر الرجال ساجدين ، وتنحني النسوة على يدي دوستويفسكي يقبلنهما ، ويغمى على طالب عند قدميه . ويتنازل بقية الخطباء عن حق الحديث ، فليس لهم ما يقولون بعد دوستويفسكي . ومنذ تلك اللحظة الفريدة ، أصبح المجد مؤكدا ، وتم العمل وتحققت الرسالة . ومن ثم ، فقد اينعت الثمرة ، فسقطت عنها القشرة الجافة ، وكان ذلك في العاشر من شباط عام ١٨٨١ .

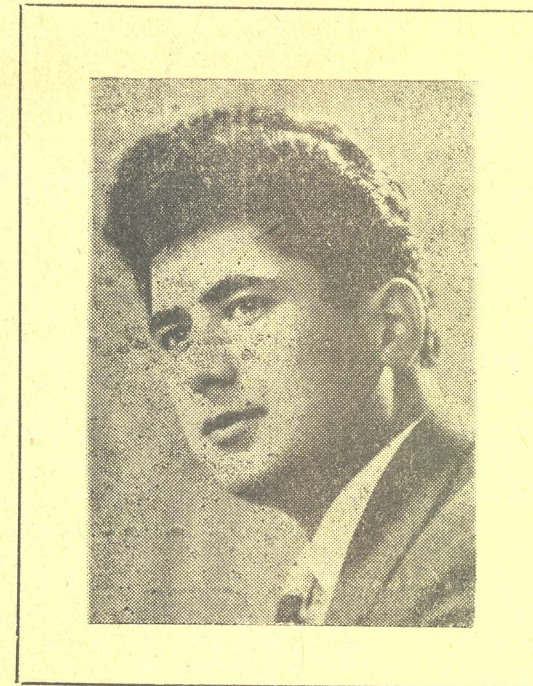
وتدفق الوفود ، التي هزها النبأ الفاجع ، من سائر الانحاء ، القريبة منها والبعيدة ، ومن داخل الحدود وخارجها ، لتقدم الى الراحل العظيم الواجب الاخير . ان الجميع يريدون الآن أن يشاهدوا الميت الذي أجمعوا على نسيانه طوال حياته ، فالشارع الذي سجي جثمانه في أحد منازله يغص بالناس الذين يرتقون سلم البيت المتواضع على مهل ، ويتكدسون حول النعش يختلسون اليه النظرة الاخيرة ، نظرة الوداع . وتتلاشى الزهور عن سرير الميت ، قد تخاطفها الناس كأثر ثمين يعتزون به . وتنطفىء الشموع في الغرفة التي أصبح جوها خانقا ، ويكاد النعش أن يقع أرضا ، فتسنده بوهن الارملة الثكلى وأولادها اليتامى .

ويريد مدير الشرطة أن يمنع الجنازة العامة ، اذ ترامى اليه أن في نية الطلاب أن يسيروا خلف النعش حاملين سلاسل المحكوم بالاشغال الشاقة ، لكنه لا يجرؤ على مجابهة هذه الحماسة التي لا بد أن تفرض نفسها بقوة السلاح اذا اضطرت . ويتحقق حلم دوستويفسكي لساعة من الزمان على الاقل ، حول قبره : اتحاد جميع الروس . ان الالم يذيب في كتلة واحدة مئات الوف الناس السائرين بقلب وجيع خلف نعشه . ان الامراء ، ورجال الاكليروس ، والضباط ، والعمال ، والطلاب ، والاجراء ، يبكون جميعا ، تحت سماء من الاعلام والرايات ، الراحل العزيز على قلوبهم جميعا .

« يا أبنائي ، لا نمنن الى حياة أبدية مقبلة ! يا أبنائي .. ما لم نتوصل الى الخلود على هذه الارض ، فاننا لن نبلغه اذن أبدا .. ان الخلود ههنا ، وفي هذا الوقت بالذات .. وثمة لحظات ينبغي الوصول اليها ، وهي لحظات من الوجود الامتع والاسمى ، وذلك حين يقف الرفاق جامدا ، وتذوب كل حياة بشرية في حياتكم الخاصة .. تلك هي لحظات الخلود .. وان الجنس البشري بكامله لما يتحرك نحو هذه اللحظات الكاملة ، هذه اللحظات الخارجة عن نطاق الزمان . ذلك ان معنى الحياة ليس في استمرار الانسان من جيل الى جيل ، بل في استحالته من وحش الى ملك رفيع ، من خاطىء الى قديس ! ان الحياة صعود مستمر من المستويات المنخفضة الى المستويات المرتفعة من الوعي حتى صيرورتها لحظة القديس املا وحقيقة الخاطىء الابدية ، وعندها تنتقل الخليقة بأسرها من الدياجير الى النور » .

الصوت وأساطير البراءة

شعر : كمال أبو ديب



« الى عبد ونادر .. الانسان الذي يبحث عن صدر حنون .. في غربته الروحية » ..

* * *

صديقتي ، تهاوت السنون في فؤادي الغريب
وصوتك الحبيب ، صوتك الدفيء ، كارتعاشة الصدى
يشربه فؤادي الكئيب .
الحالم البريء عائدا الى وجودي الجديب
يعيد لي حكاية النقاء والبراءة
يعود ، مبحوح الرفيف ، حالما ، يجيئني من عالم البداءه
مغلغلا في حرقة الثلج الرهيب عبر أضلعي ،
مغلغلا في صمتي الرهيب

كأنه مغمس الاصداء في غشاوة الدموع والاسى ـ
كأنـه حزين
كأن في أعماقه ارتجافة المصلوب فوق خشبة الصليب .

* * *

أنت لا تدرين ما طعم الهوى .. كيف يشد القلب للقلب ..
تلوب الروح شوقا ، ينطفي الجفن حنينا ،
ينتهي الانسان في الانسان ، ـ
يذوي القلب من أجل ابتسامه
أنت لا تدرين ما لون المشاوير ـ
حبيبان يرف الدرب شوقا لهما ـ
في ضمة الخصر يهلان ، فتنهل على الدرب الحكايا .
أنت لا تدرين ما معنى ارتعاش الشفه النشوى على دفءشفه.
كيف يلتف حبيبان ،
يشد الزند صدرا فوق صدر ،
ويغيبان على تهويم قبلة ..!!
أنت ما زلت تعيشين على أحلام طفله ..!!
وتعيدين الحكايات البريئه ..
حلوة أنت .. وعيناك مروج عسليه
غير أن الطهر في عينيك ما زال سماء ..!!
لم تزيفها غوايات ، ولم تطفيء بدنياها البراء،
لم تزل مدا يسوعي الرؤى ، ـ
ثر الحكايات ، حنون اللون ، ينهل نقاء
أنت لا تدرين معنى الزيف والشهوات .. ما روح التجاره
ولماذا يذبح الانسان في دنياه ربه ..
ولماذا قلبه الحرباء ، يستجدي .. ويعطي ،
وهو ينحر رياء

أنت لا تدرين ما لون الكهوف الحمر في ليل المدينه
أنت من دنيا الاساطير البعيده
ملك آت على أجنحة النور –
يسوعيا •• ربيعي العيون
أنت ما زلت كأطياف البداءه
طفلة ، تسبح في النور ، –
وتنساب على مد البراءه

★ ★ ★

حلوتي •• هاتي •• أعيدي لي
حكايات الاساطير الحنونه ،
واغمريني بانهمار الطهر في عينيك –
في قدس السكينه
واسبحي في أضلعي صوتا بريئا –
كارتعاشات الضياء
انني في غربتي غمست نفسي في غوايات المدينه
وتلويت ، تعذبت ، فقدت الله والانسان والطهر
وأقداس السكينه
حلوتي •• هاتي أعيدي لي حكايات الاساطير الحنونه
وحدنا •• والليل شفاف •• وعيناك ضياء
وأنا في قسوة المنفى أدور
أبحث الدنيا •• أفليها •• أدور ••
أنطفي من أجل بسمه –
ترسم الدفء •• تغني لي –
براءات الاساطير الحنونه
وحدنا ، والليل شفاف •• فهاتي حلوتي –
ردي الحكايا كلمة في اثر كلمه
انني أشرب هذا الصوت ، –
أبكي في ضلوعي ، أسفح القلب مرارات ولوعه ••
انني !!••
« آه » يا ذات العيون العسليه ••

آه لو تدرين ما معنى الهوى ••
– أتمنى • « رغم أني أعبد الطهر بعينيك –
لان القلب لم يعرف غوايات الهوى •
أتمنى الآن لو أدركت ما معنى الهوى »
كيف تنشق بأعماق القلوب المطفأه
لوعة الحب •• كذا •• في لحظة ••
تهمي بها في القلب أبعاد أمانيه القصيه ••
فجأة •• والليل شفاف ••
وعينان مع القلب •• تضيئان ،
تمدان أمانيه القصيه ••
هكذا ، تنبع في لحظة عمر قدريه
آه •• ياذات العيون العسليه ••!!

★ ★ ★

صديقتي ••!!
أطفأت في عيني لوعة الجراح ••!!
نسيت ما أثمت •• كم دوخني المجيء والرواح ••!!
يكفي ونحن ها هنا
أن السنين في فؤادي الكئيب
تقلصت •• عادت أساطير المسيح والبراءه ••!!
وصوتك الحبيب •• صوتك الدفيء كارتفافة الندى
يعيد لي حكاية النقاء والبراءه
يرجف ، مبحوح الرفيف •• حالما ، يجيئني من عالم البداءه
مغلغلا في حرقة الثلج الرهيب عبر أضلعي
مغلغلا في صمتي الرهيب
كأنه ملون بحة الدموع والاسى •• كأنه حزين
كأن في أغواره ارتجافة المصلوب فوق خشبة الصليب
وحالما •• ملوعا •• كقطرة الندى
يشربه فؤادي الكئيب •

صافيتا – كمال أبو ديب

رياح ورمال ونجوم

تعريب : محمد اسماعيل ابو خضور

(هذه أكثر من قصة شخصية لطيار عظيم ، فانها قصة عالمية لرجال يريدون أن يحيوا – وأن يموتوا أيضا – في سبيل قضية ، ورواية أخطار في صور شتى ، من ثلوج الاند ، الى خنادق اسبانيا ، وبيان لشيء في الانسان يسمو فوق الخطر •

فينظر انطوان ده سانت اكسو بيرى الى تجاربه الواسعة نظرة الفيلسوف ، ولا يقتصر على نظرة الرجل الذي يكابدها ويلقي على الحرب نظرة تنفذ الى البواعث الانسانية الكامنة وراء الحروب كلها) •

* * *

الطائرة التي يخيل الى الانسان أنها أداة لعزل الانسان عن الطبيعة ، تقذف به في أعماقها ، فان المسائل الجوهرية التي تواجه الطيار ، مدارها الجبل والبحر والريح • ومتى صار وحده أمام محكمة السماء العاصفة فانه يدافع عن بريده ، وينازل هذه العناصر الثلاثة على قدم المساواة •

وأكياس البريد المحفوظة في مستودعها هي عقيدة الطيار ، وهي المشعل الذي يناوله ، في هذا السباق الجوي ، عداء الى عداء • وما قيمة أنه لعله لا يحمل في بريده الا ما تخطه أقلام التجار والعشاق ؟ واذا حدث يوما أن صاد أحد النجود رجال طائرة ، فانهم لا يكونون قد قضوا نحبهم في سبيل التجار أو غيرهم ، بل طوعا لاوامر ترفع أكياس البريد مقاما ساميا متى صارت في الطائرة • وحتى هذه الاوامر ليست هي التي تعنينا ، وانما يعنينا الرجال الذين تصبهم في قالبها •

وميرموز هذا هو طيار أحد الخطوط • وجويوميه طيار آخر وسأتحدث عنه لتدرك بوضوح ما أعني حين أقول ان طرازا جديدا من الرجال يصاغون في قالب هذه الحرفة الجديدة •

كانت حفنة من الرجال ، ميرموز أحدهم ، يرتادون خط الدار البيضاء – دكار ، وكانت السيارات في تلك الايام غير ما تعلم ، فأسره رجال القبائل وبقي اسبوعين أسيرا عندهم ، ثم افتدى ، وظل بعد ذلك يطير فوق هذه المنطقة نفسها •

ولما أنشىء خط جنوب افريقية ، اختير ميرموز – وهو في طليعة الرواد أبدا – لارتياد القسم الواقع بين بونيوس ايريس وسانتياجو دي شيلي ، فقد كان هو الذي أقام جسرا فوق الصحراء الكبرى ، فالآن وكل اليه أن يقيم جسرا فوق الاند • وأعطوه طائرة أقصى ما ترتفع اليه ١٦٫٠٠٠ قدم وطلبوا منه أن يطير بها فوق سلسلة جبال ترتفع الى أكثر من ٢٠٫٠٠٠ قدم وكان عليه أن يبحث عن فجوات يمرق منها في جبال كورديلليرا ، أي أن الرجل الذي درس وجه الصحراء ، كان عليه أن يدرس وجوه النجود التي تتلفع بالثلوج التي تثيرها الرياح ، وتهيج الهبوات في دهاليزها الضيقة ذوات الجدران الصخرية ، وتكره الطيار على ما يشبه المبارزة •

وقد أقدم ميرموز على الدخول في هذه الحرب مع العناصر الطبيعية وهو أتم ما يكون جهلا بعدوه ، وبمبلغ امكان الرجوع حيا • وكان عليه أن يقوم لنا جميعا بهذه التجربة • وقد قام بها ذات يوم فألفى نفسه أسيرا في الاند • فقد اضطر ميرموز والميكانيكي الذي معه الى

الهبوط الى ارتفاع ١٢٫٠٠٠ قدم فوق هضبة تنحدر جوانبها عمودية من كل ناحية ، فظلا يومين عصيبين يبحثان عن مخرج من هذه الهضبة ، ولكنهما كانا كأنهما في فخ ، فقد كان المنحدر وعرا في كل مكان ، فجازفا بآخر ما عندهما من حيلة •

وكانا لا يزالان في الطائرة ، فأطلقاها تدور وتقفز هابطة فوق منحدر حتى بلغا وهدة • واستطاعت الطائرة أن تستجمع ، وهي تهوي من السرعة ، ما تستجيب به للآلات ، فوسع ميرموز أن يحول أنفها الى نجد وأن يتخطاه ، وكان الماء ينبثق من جميع الانابيب التي انفجرت بتأثير الصقيع في الليل ، وأعطبت آلاتها بعد سبع دقائق فقط من الطيران ، ونظر ميرموز فاذا تحته سهل شيلي كأنه أرض الميعاد •

وفي اليوم التالي أعاد الكرة • وعلى هذا النحو من الارتياد ، اضطر ميرموز غير مرة أن يهبط في الصحراء تارة ، وفوق الجبال طورا ، وفي الليل وفي البحر أحيانا، وكان في كل مرة يعود سالما ليستأنف الخروج كرة أخرى وأخيرا ، بعد اثنتي عشرة سنة من الخدمة طار من دكار قاصدا الى ناتال ، فبعث برسالة لاسلكية موجزة يقول انه عطب محركه الايمن • ثم ساد الصمت •

وانتظرنا ، وتعلقنا بالامل ، وطالعتنا الحقيقة شيئا فشيئا فأدركنا أن زميلنا لن يعود • وأنه راقد في المحيط الاطلسي الجنوبي الذي كثيرا ما جاب سماءه • لقد أدى عمله وانسل ليستريح كالحاصد ربط حزمته بعناية ، وانطرح في الحقل لينام •

وفي أمثال هذه الحالة لا يستقر في وعينا الا تدريجا أننا لن نسمع مرة أخرى ضحك صديقنا ، وأن هذه الحديقة الخاصة قد أوصد بابها في وجوهنا الى الابد • وفي هذه اللحظة يبدأ حزننا الحقيقي ، فما من شيء يحل محل هذا الزميل • فان الاصدقاء القدماء لا يستفادون فجأة بالارادة ولا شيء يعدل كنز الذكريات المشتركة والمحن المجتازة معا والشجار والخلاف والوفاق والوئام والعواطف الكريمة ومن العبث أن تغرس بذرة في الصباح وتتوقع أن تستظل بشجرتها عصرا • وهكذا الحياة نظل سنوات نغرس البذرة ونشعر أننا أغنياء ، ثم تجيء سنوات أخرى يعمل فيها الزمن عمله ، فاذا مزرعتنا قليلة الشجر سليبته ، ويذهب زملاؤنا واحدا بعد واحد • فنحرم ما كنا نتفيأ من ظلهم •

* * *

وأنت يا جويوميه ، يا صديقي القديم ، سأقول فيك أنت أيضا بضع كلمات ، ولتثق أني لن أخجلك بالمباهاة السخيفة بشجاعتك وبسالتك في عملك ، فان لي غرضا آخر مختلفا جدا من التحدث عن أغرب مغامراتك•

كان الوقت شتاء ، وقد تهت في الاند • وأقبلت من أقصى تياجونيا لانضم الى ديلي في مندوزا ، وقضينا نحن الاثنين – وكل في طائرته – خمسة أيام نبحث في الجبال بلا جدوى • طائرتان اثنتان ليس الا !

لقد كان يخيل الينا أن مئة سرب تطير مئة عام ليست بكافية ، للبحث في هذه السلسلة التي لا آخر لها ، والتي تذهب قممها في السحب وتغيب • وفقدنا كل أمل ونصح لنا موظفو حكومة شيلي بأن نكف ونيأس من العثور عليك وقالوا : (ان هذا قلب الشتاء ، فحتى لو نجا صديقكم عند هبوطه فان الليل في هذه الدروب يحيل الانسان لوحا من الثلج) •

وكان يخيل الي وأنا أقوم بهذه الابحاث العظيمة أني لم أعد أنشدك وانما أنا جالس مع جثمانك في سكون معبد الثلج •

ومضى على غيابك أسبوع واذ بنبأ يجيء فجأة :

« لقد وجدوا جويوميه ! » •

وما هي الا عشر دقائق حتى كنت في الجو ومعي اثنان من الميكانيكيين ، وبعد أربعين دقيقة هبطت الى جانب طريق ، فقد عرفت وأنا في الجو ، السيارة التي حملوك

فيها من سان رفاييل . وأتذكر أننا بكينا كالبلهاء ، وطوقنا جويوميه الحي - مؤلف آيته ومعجزته ! وفي تلك اللحظة نطقت بأول جملة مفهومة - فكانت كلمة بارعة بما انطوت عليه من الاعتداد بالانسانية .

« أقسم أن ما احتملت لم يكن يستطيع حيوان أن يحتمله » . ثم رويت لنا بعد ذلك قصتك . فعلمنا أن عاصفة ألقت ما ارتفاعه ١٥ قدما من الثلج في ثمان وأربعين ساعة على الارض . فكان هذا فخا وقعت فيه ، وتجاذبتك تيارات فظيعة ، فصارت الطائرة تتقلب كأنها قبعة في الطريق ، وهبطت بها أخيرا على الثلج .

وقلت لي : « ولما خرجت منها وقفت ، فضربتني الريح فألقتني على الارض ، ثم نهضت واقفا مرة أخرى ، فصرعتني الرياح ثانية ، فزحفت حتى صرت تحت مقدمة الطائرة ، وحفرت لنفسي مخبأ في الثلج ، وأحطت نفسي بعدة أكياس بريد ، ورقدت هكذا يومين وليلتين ، ثم سكنت العاصفة ، فشرعت أسير ملتمسا لي مخرجا ، وقد سرت خمسة أيام وأربع ليال » .

ولكن ماذا كان قد بقي منك يا جويوميه ؟

لقد وجدناك حقا ، ولكنك كنت هزيلا معجوفا ، كأنك امرأة عجوز ، وكان منظرك وأنت على سرير المستشفى ، فظيعا وكنت شقيا لانك فقدت أداة عملك الجميلة ، وكانت يداك قد خدرتا وهراهما البرد وسلبهما الفائدة ، ولما جلست على حافة السرير تدلت قدماك الجامدتان كأنهما كتلتان ميتتان ، ولم تكن قد فرغت من الرجعة الى الحياة ، فقد كنت لا تزال تلهث وتكافح وتجاهد .

وكنت وأنت تقص علينا قصتك المروعة أراك بعين الخيال تجر رجليك بغير عصى أو حبال أو زاد ، وتتوقل نجودا ترتفع الى ١٥٫٠٠٠ قدم وتزحف فوق صخور عمودية ، وكفاك ، وقدماك ، وركبتاك ، تدمي في جو تهبط فيه درجة الحرارة الى عشرين تحت الصفر ، ونزف دمك شيئا فشيئا ، واسترقت قوتك ، وطار لبك ، فمضيت على وجهك بمثل عناد النملة ، تكر راجعا لتدور حول عقبة معترضة ، وتنهض نفسك متحاملا عليها بعد كل عثرة ، وتصعد في المراقي التي تفضي الى مهاو ، ولا تكف عن السير والحركة ، ولا تغمض لك عين لانك لو كنت نمت لما قمت أبدا عن فراش الثلج .

وقاومت ما يغريك وقلي لي : - « ان الانسان بين الثلوج يفقد غريزته التي تدفعه الى المحافظة على ذاته ، فبعد يومين أو ثلاثة أو أربعة من المشي والسعي ، تعود وليس لك هم الا النوم ، وكانت نفسي تنازعني أن أرقد ولكني كنت أقول لنفسي : « اذا كانت زوجتي لا تزال تعتقد أني على قيد الحياة ، فانها ولا شك تعتقد أني على قدمي . وكل زملائي يعتقدون أني على قدمي لانهم يثقون بي ، فلا بد أن أستمر » .

على أنه حدث مرة أن زلت قدمك ، فألفيت نفسك منطرحا على الثلج فنفضت يدك يائسا . وقلت : « لقد بذلت غاية وسعي ، فأخفقت فلماذا أستمر ؟ » .

وشعرت أن كل ما عليك أن تفعله لتفوز بالراحة هو أن تغمض عينيك ، فما أقل ما كان الامر يتطلب لتطوي صفحة هذا العالم المؤلف من الوعور والثلوج ! وبدأت تذوق الراحة المستفادة من هذا « المورفين » ، ولكن وخز الضمير أهاب بك من أعماق وعيك « ففكرت في زوجتي وكيف أنها ستصبح معدمة اذا لم تستطع أن تقبض مبلغ التأمين » .

ذلك أن الرجل حين يختفي ، يؤجل تقرير وفاته رسميا أربع سنوات ، وقد كان هذا الخاطر الرهيب حسبك ، فمحى كل ما عداه ، وكنت راقدا واقعا على

بطنك ، ووجهك الى الثلج الذي يكسو مرتقى وعرا . ومتى جاء الصيف وذاب الثلج هوى جسمك مع ما يسيل من الماء والتراب ، وغاب في واحد من آلاف الشقوق في الاند ، وكنت تعرف هذا ولكنك كنت تعرف أيضا أن على مسافة خمسين ياردة أو نحو ذلك صخرة ناتئة من الثلج : « فخطر لي أني اذا نهضت ، قد أستطيع أن أصل اليها ، واذا استطعت أن أستند الى هذه الصخرة فقد يجدونني عندها في الصيف المقبل » .

وصرت على قدميك مرة أخرى ، فذهبت تجرهما وتمشي ليلتين وثلاثة أيام ، ولكنه لم يكن يدور بخلدك عندئذ أن في وسعك أن تحتمل فوق ما احتملت .

« ان الذي ينقذ الانسان هو أن يخطو خطوة ، ثم خطوة أخرى » .

وأخيرا ، في تلك الغرفة ، نمت نوم المتكسر الذي أضمره الكلال . فقلت لنفسي ان مكان جويوميه فوق الشجاعة وفوق تلك الفضيلة العادية التي تسمى التواضع . فان عظمته الادبية مرجعها الى شعور بالتبعة فقد كان يدرك أنه مسؤول عن نفسه وعن البريد ، وعن تحقيق آمال زملائه ، وكان في يديه حزنهم وسرورهم ، وهو مسؤول عن ذلك العنصر الجديد الذي ينشئه الاحياء والذي يشترك في انشائه .

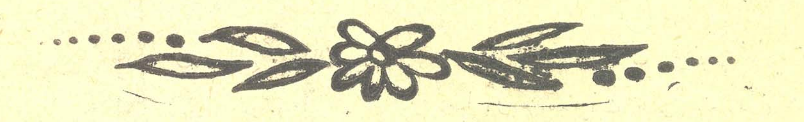
لقد كان جويوميه أحد أولئك الرجال ذوي الجرأة والاريحية الذين فرضوا على أنفسهم أن ينشروا ظلهم فوق آفاق شاسعة . ومعنى أن يكون المرء رجلا ، هو أن يكون مسؤولا ، وأن يشعر بالزهو من جراء انتصار فاز به زملاؤه ، وأن يحس حين يضع لبنته أنه يساهم في بناء العالم .

عرفت شابا انتحر ، ولا أتذكر أية خيبة أمل له في الحب أو غيره أغرته بأن يطلق رصاصته على قلبه ، ولا أدري أي باعث أدبي صدر عنه حين وضع على يديه قفازين ناصعي البياض قبل أن يطلق الرصاصة . ولكني أتذكر حين علمت بهذه الحادثة المؤسفة أني لم أشعر بنبل فيه ، بل بنقص في الكرامة ، فوراء هذا المحيا الوسيم ، اذن ، وفي هذا الرأس الذي كان ينبغي أن يكون صندوق كنز ، لم يكن هناك شيء ما على الاطلاق .

ولما سمعت بهذا المصير العقيم التافه ، تذكرت رجلا آخر مات ، وكان بستانيا . وكان يقول وهو على فراش الموت : « لعلكم تعلمون أني كنت أحيانا أتصبب عرقا وأنا أعمل بالفأس ، وكان الروماتزم يأخذ في ساقي فيجهدني الوجع ، فأسخط على نفسي وأقول اني عبد رق ، والآن أقول لكم اني أشتهي أن أعمل بالفأس وأعمل ، فانه لعمل جميل ، والانسان يشعر أنه حر حين يعمل فأسه ، ثم اني أتساءل من ذا عسى أن يقلم أشجاري بعد موتي ؟ » .

وكان الرجل سيخلف وراءه أرضا بورا ، وكانت في قلبه علائق حب لكل أرض تزرع ولكل أشجار العالم فهذا رجل كريم القلب ، رجل سخي النفس ، رجل نبيل ، رجل يصارع الموت باسم الخلق ويستحق مثل جويوميه أن يوصف بأنه شجاع .

تعريب ـ محمد اسماعيل أبو خضور



لحن

شعر..

أنور إمام

لحن كذوب المنى بالسحر نضاح
تصغي اليه طيوف الحسن والهة
فالغصن مزدهر والنهر مصطفق
وفي النسائم عطر آسر عبق
سكرت باللحن مأخوذا بروعته
فقلت يا طير غرد وانطلق طربا
وفي الخمائل وجد ليس تطفئه
والقلب قلبك مزهوا بنشوته
والحسن منك الى الدنيا تترجمه

قد كنت مثلك قيثارى مرنمة
لحني طيوف المنى من طيب نغمته

حتى غدوت ونفسي ملئها الم
من الف ناب مدمى في جوانحها
ترى النشيد أنينا ضل نغمته
أترعت كأسي ومن صاب مراشفها
الفت يا طير آلامي أكابدها

أسير يومي ولا أدري أفي غده
اني وجدت ولم أعلم ايوصلني

فقال لي الطير ما شكواك من الم
والغد عود اذا اجتاحته جائحة
أذكت طيوف الاسى لحني وأنقه
لولاه ما رن في قيثارتي نغم
وانت مثلي تعطي كل نافحة
صفاء قلبك كنز من منابعه
فانعم النفس بالامال يخصبها
فالنفس ان حسنت أضفت مباهجها
ما العيش الا سمو بت تمنحه
وارشف من الطيب الحانا منغمة

كأنه عبق في الروح ينداح
وتنتشي فهو أعراس وأفراح
والروض مؤتلق والايك ممراح
على الورود فغداء ورواح
لما تغنى على الاغصان صداح
تحنو عليك اذا غردت أدواح
الا بشدوك صهباء ولا راح
والزهر مبتسم والعطر نفاح
صبابة فهو تعبير وافصاح

أوتارها من رفيف الخلد تمتاح
منه استمدت سمو الروح أرواح

أنغام لحني بها شكوى واتراح
لم يبق فيها لغير الجرح افساح
والا للحن في مسمعي نوح ونواح
مل الطواف بها صحب وأقداح
كما تآلف أرواح وأشباح

دنيا المنى أم عذاب النفس يجتاح
الى الحقيقة في اللجات ملاح

لولاه ما كان للقيثار مداح
من اللهيب فان العطر فواح
من الخطوب عنيد الوقع ملحاح
ترنح الدرب منه وانتشى الساح
تضيء درب العلى ان شح مصباح
ينثال دفء المنى واليأس ينزاح
في مرتع الخير امساء واصباح
على الربيع وفيها العطر نضاح
للكون لحنا وخير الناس مناح
فاللحن للوحي والالهام مفتاح

بانياس ـ أنور امام

قصائد .. كانت سجينة !!..

شعر : سليمان عواد



الآلهـة التي عبدها الاقدمون
استحالت بنظرنا الى أبالسة وغيلان
لم يعد هناك آلهـة ..
لقد أصبحوا رمادا كريها
تذروه رياح الفردية المتألهة
في مجمرة الزمن ..
القرن العشرون صار معبدا وثنيا
لآلهة الزيف والحقارة والاستبداد !!..
القرن العشرون بطل كرتوني
يحمل مدفعا رشاشا بدل الرمح ..
اما في دماغه ، فلا شيء سوى انهار الصديد
وعواء الغرائز الوحشية !!..
من أنت أيها المتغطرس
الممتطي عربة الاسياد والاباطرة
من امرك أن تركب عربة السيادة
وتسحق قلبي وحياتي ،
بعجلات عربتك الشيطانية ..
أأنت من نسـل الآلهـة
يجري في عروقك دم التعالي ، الطهر والقداسة

أنت لسـت من صلب الآلهـة
أنت بوم ..
أنت من صلب وحوش الادغال !!..
فيما مضى ، كانت الشمس بحرا
يغدق هباته الكثيرة ، المثقلة بأحلى الثمار ، وأروع الازهار
أمتع الشعر ، والموسيقى ، والغناء ..
أما اليوم فلم تعد الشمس بحر هبات
صارت جحيما ، من المصائب واللعنات !!..
.. من الذي تغير
أنحن معشر البشر التعساء
أم أنت .. قولي يا شمس !!..
أعماقنا ، يوم كانت حقول نبل ، وطيب ومحبة
كانت تنزل الخصب والبركة من أعالي السماء
سماء التآخي والمحبة والطهارة
أما اليوم ، فأعماقنا باتت كهوفا للوحوش
لوحوش تقتات بدمها ،
ان لم تجد دماء الضحايا ..
آه .. يا شمس .. نحن لم نعد نملك من الانسان
سوى الصورة ، واللفظة !!..
نيرون ، نيرون المتوحش اللعين
احرق مدينة بكاملها
ليرضي غريزة الحيوان في نفسه
غريزة وحش الغابات ..
نيرون الدموي هذا ، كان صخري القلب
كان جبلا من الصخور
لم تعرف الدموع ، دموع الحنان الى قلبه سبيلا ..
ترى .. لم لا تزال الاساطير
تنسج حول وحشية هذا « المخلوق » الصخري
وفي دنيانا ، في زماننا ، في واقعنا
الوف من أمثال نيرون ؟!!..

الأدب النسوي العربي المعاصر

بقلم : الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)

١ ـ جديد .. وقديم

٢ ـ بوادر البعث :

عائشة التيمورية ـ زينب فواز ـ وردة اليازجي

٣ ـ رائدات النهضة الادبية :

مي ـ باحثة البادية

٤ ـ اتجاهات الادب النسوي المعاصر وسماته المميزة :

(آ) الشعر (ب) القصة (ج) الادب الاجتماعي (د) الدراسات الادبية .

٥ ـ ملحق المؤلفات النسوية في مكتبة الادب العربي المعاصر .

جديد .. وقديم

كانت الفكرة السائدة الى عهد قريب ، أن ظهور المرأة العربية في الميدان الادبي ، ظاهرة جديدة من ظواهر الادب العربي المعاصر ، لكن مزيدا من التعمق في دراسة تاريخنا الادبي ، ومن الاتصال بماضينا ، يؤكد أن نهضة الادب النسوي لا يجوز ان تعتبر جديدة مفاجئة ، وانما هي ، ككل نهضة أخرى ، قومية أو فكرية أو أدبية ، ذات جذور راسخة في أعمال الماضي . واذا كان التاريخ الواعي ، لا يمكن أن ينظر في حاضر الامة العربية ، أو أي أمة سواها ذات ماض عريق ، منعزلا عن ذلك الماضي ، فكذلك الامر بالنسبة الى التاريخ الادبي للمرأة العربية ، الذي هو في حساب الواقع والحياة ، خيط من نسيج التاريخ العام .

وعذر الذين تصوروا أن الادب النسوي ظاهرة جديدة في الادب للمرأة العربية طوى وأهمل ، منذ عزلت عن الحياة العامة ابتداء من القرن الثاني الهجري ، أثرا لظروف عامة وأوضاع اجتماعية ، يعرفها المتصلون بتاريخ العرب والاسلام . فلقد شاءت الظروف أن تبدأ حركة التدوين لهذا التاريخ في أوائل العصر العباسي ، وهو العصر الذي شهد وأد المرأة العربية معنويا ، وعزلها عن الحياة العامة . فلا عجب أن أغفلها المؤرخون والنقاد ، وأسقطوها من حسابهم ، وقد عاشوا في مجتمع أهدر الاعتراف بالمرأة ، في الحياة العامة .

وهذا يفسر لنا الظاهرة الشاذة في تاريخ الادب العربي ، أعني اختفاء المرأة منه . ووجه شذوذها ، أنها تناقض ما تعرف الطبيعة والحياة ، من أصالة الاستعداد الفني للمرأة ، فطرة وطبيعة ومزاجا . فالوجدانية عنصر جوهري في الادب ، لا يكون بغيرها فنا ، وهي كذلك عنصر أصيل في فطرة حواء ، لا تكون بغيرها أنثى . ومهما يختلف المختلفون على عقلية المرأة ، فاني لا أتصور أن تكون أصالة الوجدانية في طبيعتها موضعا لخلاف ..

والمرأة العربية ، لم تكن مصابة بعقم الوجدان وشذوذ الفطرة لتختفي من الميدان الادبي الذي هو ميدانها الاصيل ، وانما ابتليت بظلم فادح ، أسقط مكانها في التاريخ الادبي ، لانه دون في عصور نبذت المرأة اجتماعيا . وحتم على من يريد أن يدرس أدب المرأة العربية ، أن يرجع الى التراث الادبي للعرب ، كي يجمع ما تبعثر منه من آثار أدبية للمرأة ، وينشر المطوي من نشاط فني لها ، أهدره مؤرخو الادب ونقاده .

* * *

وقد عكفت على تلك المهمة منذ سنين ، فبان لي بعد طول البحث والدرس والتنقيب ، ان المرأة العربية لم تكن قط ـ كما يتصور كثير منا خطأ ـ بمعزل عن الحياة الادبية • بحيث أستطيع أن أؤكد ، وأنا أقدر خطر الكلمة وجلال المسؤولية وأمانة العلم ، أن الحياة الادبية للعرب عرفت الاديبة العربية من قديم بعيد ، وظلت تعرفها على مسار الزمن ، حتى في أحلك عصور نبذها واسترقاقها • وكان نشاط المرأة الادبي ، يكافيء استعدادها الفني الاصيل • واذا كانت كتب التاريخ الادبي لم تحتفل بذلك النشاط ، فليس معنى هذا أن الاديبة العربية لم تكن هناك ، وانما معناه ، بشهادة الحق والواقع ، أن هؤلاء المؤرخين والنقاد ، ألقوا بالاديبات العربيات في منطقة الظل ، متأثرين بعقلية عصور لم تعترف للمرأة بمكانها في الحياة العامة ، وبأوضاع مجتمع وأدها معنويا وفرض عليها الرق الاجتماعي والعاطفي •

بوادر البعث

وأكتفي بهذه اللمحة العاجلة عن قضية التاريخ الادبي للمرأة العربية ، لاتحدث عن أدبنا النسوي المعاصر • فأقول أن هذا الادب ، قد ساير حركة تحرير المرأة العربية من أغلال الحجاب الذي ألقى بها لمدى عصور ، وراء أسوار الجهل والنبذ والتعطل • وهذه ، بدورها ، قد سايرت الحركة القومية خطوة خطوة : بدأت دعوة تحرير المرأة مع دعاء الفجر الجديد للحركة القومية ، في اخريات القرن التاسع عشر ، وسارت أول الامر وئيدة الخطوات خافتة الصوت ، تكتفي بطلب تعليم المرأة على لسان « رفاعة الطهطاوي » والاعتراف بحقوقها الانسانية على لسان « الامام محمد عبده » ثم ارتفع صوتها مع مطلع القرن العشرين على لسان « قاسم أمين » تطالب بتمزيق الحجاب التركي ، واطلاق المرأة من أسوار الحريم • ثم توارت الدعوة أعواما ، مستكنة في الافئدة والضمائر والعقول ، ابان وطأة الاحتلال الاجنبي الذي جثم على الشرق العربي يكتم أنفاسه •

فلما بدأ وميض الثورة العربية يلتمع في الافق ، خرجت المرأة على ضوئه تطلب حقها في الوجود الحر الكريم • وحيثما تم لقطر عربي أن يحقق وجوده ، تحررت أنثاه من أغلالها ، وانطلقت في ميدان الحياة العامة ، واعية عاملة مناضلة • واتجهت ، بكل وعيها وانطلاقها الى المجال الادبي ، مستجيبة لما في فطرتها ومزاجها من استعداد له أصيل ، ومنفسة عن كبت عاطفي أرهقها قرونا ذات عدد ••

واذا كان الادب النسوي المعاصر ، قد ساير حركة تحرير المرأة العربية التي لم تكن في الواقع الا صدى للبعث القومي ، وجزءا من برنامج قادته ورواده ، فان هذا الادب قد ساير في الوقت نفسه خطوات النهضة الادبية العامة ، وقد كانت كذلك مظهرا للنهضة القومية، وتعبيرا عنها ، ورائدة لها ، وأثرا من آثارها •

ومؤرخو الادب العربي ، يرصدون بوادر نهضته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي شهدت كذلك بوادر الادب النسوي المعاصر ، في « عائشة التيمورية » [1] شارة الطليعة وقد نظمت الشعر بلغات ثلاث : العربية والتركية والفارسية • ولم ينج شعرها ـ وما كان له أن ينجو ـ من أثر للصنعة والتكلف والزخرف البديعي ، كان لا يزال يغلب على أسلوب عصرها كما لم ينج من احتكام الوضع السياسي لمجتمع تحكمه سلالة أسرة تركية ، أجنبية عن البلاد ، حكما فرديا مستبدا • وهذا يبدو بوضوح في القصائد التي نظمتها لتهنئة الخديو توفيق ، بأعياده وأفراحه ورحلاته، وبنجاته من الثورة العرابية التي كان القصر يعدها تمردا على ولي الامر ، وخروجا على طاعته ! [2]

وهبوط شعرها السياسي ، في الميزان الفني النقدي، يرد الى خروجها على المألوف من طبيعة المرأة ، فقلما

---

(١) ولدت بالقاهرة عام ١٨٤٠ ، وتوفيت سنة ١٩٠٢

(٢) انظر قصيدتها في هذه المناسبة : ص ١٥٥ من ديوان حلية الطراز •

عرفناها ، في التراث الادبي ، للعرب شاعرة ملك ، وقلما شهدها ماضينا واقفة بباب البلاط ، تمدح السلطان •
وعذر « عائشة » أنها نشأت في بيت اتصلت أسبابه بالقصر في القاهرة والاستانة ، وكان رجاله من كبار حاشية السلطان •

وكذلك يهبط شعرها في (المناسبات) و (المجاملات) [٣] •

على انها في شعرها العاطفي والعائلي ، تعبر عن حساسية مرهفة ونفس رقيقة عذبة ، وأسلوبها فيه ، يشهد بشاعرية مواتية ، ويبشر ببوادر النهضة الادبية الحديثة ويدخل في حساب المؤرخ الادبي ، بارقة واعدة بعصر أدبي جديد •

ومن حيث الوضع الاجتماعي للمرأة ، اكتفت شاعرة الطليعة بالتمرد على الجهل ، وعلى العزلة الادبية• وجازفت – وهي من طبقة ارستقراطية – بأن تمارس هواية الادب ، شعرا ونثرا ، وقد كانت بيئتها لا ترى لمثلها الا أن تمارس هواية امتاع الرجل ومؤانسته ، والاشراف على ادارة البيت •

أما الحجاب ، فلم تتمرد « عائشة » عليه لان عصرها لم يسعفها على هذا التمرد ، ولان رواد تحرير المرأة العربية في جيلها ، لم يطالبوا بأكثر من تعليمها والاعتراف بانسانيتها • أما الحجاب ، فكان في رأيهم مظهر تصون وسمة للحرائر ، وكذلك رأته « عائشة » فتقول في قصيدتها البائية : [١]

بيد العفاف أصون عز حجابي
وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة
نقادة قد كملت آدابي

(٣) ديوان حلية الطراز – ص ١٥٣ : ١٨٧ ط القاهرة •

(١) ديوان « حلية الطراز » – ص ٢٦٥ ط القاهرة ١٩٥٢ •

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر
قبلى ذوات الخدر والاحساب
ما قلته الا فكاهة ناطق
يهوى بلاغة منطق وكتاب
ما ضرني أدبي وحسن تعلمي
الا بكوني زهرة الالباب
ما ساءني خدري وعقد عصابتي
وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني حجلى عن العليا ولا
سدل الخمار بلمتى ونقابي

والقصيدة تعد وثيقة أدبية تاريخية بما تسجل من « وضع اجتماعي » للمرأة العربية في ذلك العصر ، وموقف شاعرة الطليعة من هذا الوضع ، فهي لا تضيق بالحجاب ، وانما حسبها ألا يعوقها الحجل – أي القيد– وسدل الخمار عن العلياء ، والا يضرها أدبها وحسن تعلمها ، الا بكونها زهرة الالباب !

وفي القصيدة ما يشهد بأن شاعرة الطليعة كانت تعي من الماضي الادبي للمرأة العربية ، وتعرف من الاديبات السابقات ، ما يشجعها على اقتحام الميدان الادبي ويغذي طموحها فيه •

ولها في النثر محاولة قصصية في « نتائج الاحوال » ولها أيضا كتاب « مرآة التأمل في الدهور » وقد غلب عليها فيهما أسلوب العصر بما يثقله من حشو وتطويل ، ومن زخرف وصنعته بديعية [٢] لكنه على أي حال لم يهبط عن أسلوب أعلام المتأدبين من جيلها ، وكان جديدا من « عائشة » أن تحاول كتابة القصة ، ومبلغ علمنا أن التاريخ الادبي للعرب ، لم يع قصة كتبتها أديبة عربية قبلها ، على ما نعرف من استعداد حواء للفن القصصي [٣]
واذا كانت التيمورية قد عالجت نظم الشعر « فكاهة ناطق ، وزينة مخدرة • كما صرحت بذلك في قصيدتها

(٢) و (٣) مي : عائد تيمور : الفصل السابع ط الهلال •

البائية . واذا كانت قد عالجت النثر « لملء ساعات الفراغ الطويلة التي لم تكن تستنفذها واجبات المنزل ولياقات المجتمع ونظم الاشعار وفروض العبادة فحسب هذه الشاعرة أنها كانت بادرة بعث ، أو « البارق في الظلام » كما تقول أديبتنا « مي » .

* * *

وقد عاصرت التيمورية ، شاعرة أخرى لمعت في لبنان ، وهي « وردة اليازجي » التي تركت لنا ديوانها « حديقة الورود » [1] شعرا عاطفيا رقيقا ، يعبر عن وجدان مرهف .

* * *

ومع بوادر البعث ، ظهرت « زينب فواز » [2] كاتبة من طراز آخر ، لم تكن الكتابة عندها فكاهة ناطق ومشغلة فراغ ، ولا هي اتخذت من « نقش المداد خضابا » ومن « وجنات الطرس » مجالا للزخرف والتطريز ، وانما اتجهت الى ميدان الكتابة ، وهي تدرك أنها تؤدي رسالة كبرى .

وزينب قد نشأت في بيت عربي صريح ، ومن أسرة شعبية صميمة ، وقرأت تاريخ الشرق والغرب ، فراعها أن مئات من بنات حواء قد شاركن في صنعه وتوجيهه ، وهالها في الوقت نفسه ، ان ترى المرأة في جيلها ، مخدرة لا تعي ذاتها ولا تدرك حقيقتها هنالك شعرت « زينب » أن عليها واجبا لا يهون التخلي عنه ، فحملت أمانة القلم وأدت ضريبة الوعي والمعرفة ، فجمعت في كتابها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» .. تراجم موجزة لمن عرفت من نساء الشرق والغرب ، المشهورات منهم والمغمورات في مختلف العصور .

(١) طبع لاول مرة في بيروت عام ١٨٦٧ ـ وكان عمر الشاعرة اذ ذاك ، تسعة وثلاثين سنة .

(٢) ولدت في الشام (صيدا) سنة ١٨٦٠ وعاشت بمصر .

وأودعت هذا الكتاب في المكتبة العربية ، تراثا لجيلنا ، يهيب بالواعيات منا أن يحملن الامانة التي حملتها « زينب فواز » في عصر الحريم ، وأن يكملن ما بدأت من نشر المطوى من تاريخ للمرأة ، ألقته عصور استعبادها في منطقة الظل .

* * *

رائدات النهضة الادبية

وقد شهدت الاعوام الاخيرة من القرن الماضي ، ظهور رائد البعث الادبي « محمود سامي البارودي » مجدد الشعر العربي . ومن البارودي ، ظهرت أديبة عربية رائدة للادب النسوي المعاصر ، ومعلنة عن مشرق فجره الجديد الصادق ، ومؤكدة ان الادب ـ النسوي لم يختلف عن الادب العام في تلك الوثبة الباهرة .

تلك هي « مي » [1] الاديبة الاولى لعصرنا ، والتي فرضت الاديبة العربية على المجتمع الادبي ، ومضت في الحياة الادبية مصعدة الى القمة الشماء ، وكان منتداها الادبي ملتقى الصفوة من أعلام العصر وائمة البيان ..

وقد احتفل الذين كتبوا عن « مي » بناديها هذا ، غير أني لا ألتفت اليه ، بقدر ما ألتفت الى الاثرين الهامين اللذين أحدثتهما « مي » في الادب العربي :

الاول : انها قدمت اليه الاداء الفني للفكرة الناضجة والثقافة الرفيعة ، والادب الى زمنها ، كان في عزلة عن الفكر ، ولعله ما يزال فينا حتى اليوم ، من يقصر المجال الادبي على العواطف لا الافكار ، ومن يزعم ان للفكر لغة غير لغة الادب : موضوعية التناول ، تقريرية الاحكام . ولكن « مي » منذ أكثر من نصف قرن ، آثرت الادب العربي بآثارها التي تحمل كل خصبها الفكري ونضجها العقلي ووعيها الثقافي ، مؤداة باسلوب أدبي رفيع ، لا

(١) ولدت في مدينة الناصرة بفلسطين حوالي سنة ١٨٨٥ ، وعاشت احفل حياتها الادبية بمصر ، وتوفيت فيها سنة ١٩٤١ .

تخطىء فيه وجدانية التناول وشاعرية الالفاظ وفنية التعبير .

وأعرف أن تراثنا الادبي ، يعتز بعدد من مثل تلك الآثار ، التي تجمع بين نضج الفكرة وفنية الاداء ، لكن عصور الانحطاط الادبي ، باعدت بيننا وبين تلك الآثار الرائعة وصيرت الادب صنعة لفظية وزخرفا من القول ، منكرة عليه أن يقتحم حرم الفكرة والذي يقرأ أدب « مي » مقيسا الى أدب جيلها والذي قبله مباشرة ، يبهره منها هذا الثراء الفكري ، مع شاعرية الاسلوب .

أما الأثر الثاني ، مما قدمته « مي » الى أدبنا المعاصر فهو التقاء التيارات الثقافية من شرق وغرب ، في أدب عربي مبين . و « مي » قد اتصلت بالفكر العالمي أوثق اتصال ، وقرأت الآداب الغربية ، بمختلف لغاتها ، حيث كانت تجيد منها سبع لغات . واستطاعت مع ذلك أن تعطينا أدبها ، عربي الروح والبيان ، شرقي الملامح والسمات. ولم يزدها اتصالها بالآداب الغربية الا اعتزازا بعروبتها وحفاظا على شرقيتها ، فكان هذا سر أصالتها التي لم يمسخها التقليد والتغرب ، على نحو ما يفعل كثير من أدباء العصر ، يكتبون العربية بأسلوب غربي ، ويقدمون لنا آثارهم في ثوب مهلهل ، عربي الشكل ، أجنبي المادة والنسيج !

* * *

ومع « مي » ظهرت أديبة أخرى ، مصرية صميمة ، لم يتح لها ما أتيح لمي من غذاء ثقافي عالمي ، ولم تحدث في الادب العربي مثل ما أحدثته « مي » ، لكنها اتجهت الى ميدان آخر ، يحكم ظروفها الخاصة . أعني « باحثة البادية » « تلك حفنى ناصف »[1] التي خاضت بقلمها معركة تحرير المرأة ، وشغلت عن الادب المحض ، بقضية المرأة العربية ، تدافع عن حقها في الحياة ، وتطالب بتحريرها من أغلال الرق والوأد . وقد عانت « ملك » نفسها من هذه الاغلال ما عانت ، وعاشت في ظل «الحريم» ببادية الفيوم ، مهدرة المشاعر مكبوتة العاطفة ، وأرهقها تجربة تعدد الزوجات ، وأذلها عقم ــ لم يكن لها فيه ذنب ــ في بيئة مفتونة بالانجاب ، يرتهن فيها حق المرأة في الحياة بالامومة ! وظهرت مقالات « باحثة البادية » في الجريدة ، الى جانب مقالات أئمة الكتاب في عصرها ، تهدر بالغضب للمرأة ، وتعرض مأساة وضعها الاجتماعي بأسلوب يستمد قوته من عمق المعاناه وصدق التجربة ، وأصالة بيانه العربي .

اتجاهات الادب النسوي المعاصر

وسماته المميزة

ومع النهضة القومية العامة التي ردت الى المرأة العربية اعتبارها المهدر ، سار الادب النسوي منطلقا في تيار النهضة الادبية العامة ، وقد تشعب الطريق امام الاديبة العربية ، بين الابداع الفني على أثر « مي » بعد التيمورية واليازجية ، وبين الادب ــ الاجتماعي والقومي على أثر « باحثة البادية » بعد « زينب فواز » .

على أن عاملا جديدا طرأ على حياة المرأة العربية ، اتجه بها كذلك الى شعبة ثالثة ، وهي «الدراسات الادبية» التي كان لا بد للاديبة العربية من المشاركة فيها لتثبت وجودها العلمي ، بعد أن عبرت الطريق الطويل ما بين متاهة الامية وأبهاء الجامعة . وهو مجال أعفيت منه أديبات الطليعة ، ورائدات النهضة الادبية ، ولم تعف منه أديبات هذا الجيل ، وفيهن من وصلت الى منصب الاستاذية في جامعات القاهرة والاسكندرية وبغداد وبيروت . وأخريات عددهن غير قليل ، يحملن درجات جامعية في الدراسات الادبية والتاريخية وقد توزعن في شتى ميادين الادب والصحافة بحيث يدعم مراكزهن فيها ما يقمن به من دراسات أدبية .

* * *

---

(١) ولدت بالقاهرة عام ١٨٨٦ وماتت في ريعان شبابها عام ١٩١٨ .

والسمة الغالية على أدبنا النسوي المعاصر ، تختلف باختلاف الاتجاهات التي تشعب اليها طريقين في الحياة الادبية ..

ففي المجال الادبي الصرف ، تتجه الاديبة العربية الى الشعر والقصة ، حيث يغلب عليها فيهما ، التعبير عن مشاعر الانوثة وعواطفها وهمومها . والاديبة العربية لا تستجيب في هذا الى طبيعتها فحسب ، ولكن تريد أن تعبر عن ذاتها بعد أن استأثر الادباء الرجال طويلا بالتعبير عنها ، وترجموا لنا أشواقها ، وتولوا الحديث عن تجربتها العاطفية التي هي جوهر وقوام أنوثتها وسر حياتها .

لم تتكلم خولة وعبلة ، وهند والثريا ، وبثينة وعزة ، ومية وعفراء وفوز واسماء ، وانما تكلم عنهن امرؤ القيس وابن ابي ربيعة ، وجميل وكثير والاحنف، وأمثال لهم ممن نطقوا بألسنة الحبيبات ونقلوا الينا وجيب قلوبهن وحديث مشاعرهن .

وكان أثرا حتميا لوأد المرأة العاطفي ، ان حدد نقاد العصر العباسي مجالها الفني بالرثاء وحده ، [1] ولم يحتفلوا بغير المرائي من الآثار الادبية للمرأة . وبتحرير المرأة العربية بعد قرون من استعبادها ، آن لها أن تتحدث عن ذاتها اصالة ، وأن ترسم بقلمها صورة الانثى كما تراها في كيانها وتجدها في ذاتها وتفهمها بفطرتها .

آ ــ الشعر :

ولاذت بالشعر تعبر به عن مطوى أشواقها وأسرار ذاتها ومكنون عواطفها ، وقد مهدت « أم نزار الملائكة : سلمى بنت عبد الرزاق الكاظمية » لظهور عدد من شاعرات العراق ، ترنمن بأناشيد وجدان حواء المرهف، وحسها المشبوب ، وأولى هؤلاء الشاعرات ، ابنتها « نازك الملائكة » قمة الشعر النسوي المعاصر ، التي استطاعت أن تنتزع للاديبة العربية مكانا مرموقا بين أعلام شعراء الجيل ، وأن تفرض على أدبنا الحديث ، الاعتراف بالاديبة العربية شاعرة من الطراز الاول .

واذا كان الادب العربي يدين لنازك ، بما نفت عن حواء العرب من لعنة جمود الحس وعقم الوجدان وشلل العاطفة وخواء القلب ، وبما قدمت اليه من صورة مفتقدة للانثى ، بكل اصالتها ، فانه ليدين لها كذلك بما حققت له من تطور حاسم ، لم تكن أمانينا تجرؤ على التطلع اليه ، بعد أن أثقله ركام من شعر المدائح والمناسبات ، ومن قصائد ترسم ظواهر الاشياء وتنقل صور الجمال ، وبعد أن غبر النقاد أزمانا ، يقيسون شاعرية الشاعر بقدر ما يطول في قصائده ، وبما يختار لها من عراض البحور وفخم الاوزان ..

وجاءت « نازك » فنقلت الشعر العربي من حدود الشكل والصورة الى الصميم والجوهر ، وجاوزت به أبعاد الطول والعرض ، الى العمق الموغل في عوالم النفس ومجالي الروح وآفاق الوجدان ، على نحو يشهد باقتدار شعرنا على أداء مثل تلك الاسرار المستكنة في طوايا الذات ومسارب النفس ، والمعاني الرمزية الوجدانية التي تفوت المصطلح المعجمي والدلالة الشائعة .

ومع « نازك » ظهرت في العراق الشاعرات « رباب الكاظمي وعائكة الخزرجي وفطينة النائب » ورباب تمثل المذهب التقليدي في الادب النسوي ، بحكم تلمذتها على أبيها الشاعر « عبد المحسن الكاظمي » وفطينة تعلن في شعرها ثورة المرأة الجديدة على ما لا يزال يثقلها من رواسب الكبت وبقايا القيود ، وترفع صيحة التمرد على الاغلال ، في ديوانيها « رنين القيود ، ولهيب الروح » على حين تميل « عائكة » الى القصة الشعرية ، وتعيد في مسامر بغداد الادبية ، ذكريات ليالي شهر زاد .

ومن فلسطين ، خرجت « فدوى طوقان » شاعرة موهوبة متفوقة ، لا تخطىء في شعرها العاطفي ، شذى عطر حواء ، وروح أنثى الشرق بكل سرها وسحرها . على أنها من ناحية أخرى ، تقدم لنا دواوينها الثلاثة ، الوقع الادبي لنكبة فلسطين على وجدان شاعرة وديوانها الاول : وحدي مع الايام ، يصور وطأة النكبة ، على حس فتاة تنتزع من دنيا صباها ومراتع طفولتها ومراح أنسها ، لتجد نفسها غريبة بلا وطن . وفي ديوانها الثاني « وجدتها » يلوح سراب الوهم في لحظة من غفوة اليأس وخداع الاماني وحذر الحلم . أما ثالث دواوينها

« أعطنا حبا » فنشيد الحيرة والقلق والضياع ، لهذاالجيل من شباب فلسطين .

* * *

وفي الافق الادبي غير هؤلاء ، عدد من الشاعرات العربيات ، ينظمن الشعر العاطفي ويلقين القصائد في المناسبات القومية ، وقد ذكرت أسماءهن ـ في القائمة الملحقة بهذا ـ أمام المطبوع لهن من دواوين ..

ومعهن شاعرتان سوريتان ، تنظمان الشعر بالفرنسية:

كوليت سهيل ـ وقد نشرت ديوانين :

وسلمى الحفار الكزبري ـ ولها ديوان : مطبوع في سان باولو .

ب ـ القصة :

وتبرز في ميدان القصة ، الاديبة الفلسطينية « سميرة عزام » كاتبة بارعة للقصة القصيرة . وتستطيع بمجموعاتها « أشياء صغيرة ـ الظل الكبير ـ .. وقصص أخرى » أن تشهد بأصالة الانثى وتفوقها في هذا المجال. وأكثر نماذجها القصصية ، من واقع الحياة ودنيا الناس، لكن دون أن تخطئها فنية التناول والاداء .

كما تبرز « كوليت سهيل خوري ـ دمشق » كاتبة للقصة الطويلة ، تمارسها في براعة واقتدار . وقد استطاعت على حداثة عهدها بالميدان الادبي ـ أن تشغل النقاد بقصتها « أيام معه ، وليلة واحدة » وموضوع الاولى ، تمرد حواء الشرق على كل كبت اجتماعي أو عاطفي ، وموضوع الثانية ، مأساة زواج بغير حب !

وسميرة وكوليت ، تمثلان اتجاهين مختلفين في قصص الاديبة العربية المعاصرة . الاتجاه الاول ، واقعي هادف ، يتولى الرصد الادبي لحركة الانتقال العنيفةالتي عبرتها المرأة العربية في هذا الجيل ، ما بين أسوارالحريم وآفاق الحرية . وهي حركة لم يلتفت اليها الادباء ، والتفتت اليها أديبات منا ، ورحن يرقبن ـ في انفعال ومشاركة ـ خطوات جيل الانتقال ، ويرسمن صور ضحاياه ممن تعثرن على الصراط ، وأعشى عيونهن الضوء الوهاج ، اثر انطلاقهن من الخدر المظلم . ويعد هذا الصنف من القصص النسوي الحديث ، تراثا هاما في الادب المعاصر ، اذ يسجل الوقع الادبي لثورةاجتماعية لم يشهد تاريخ المرأة الشرقية ما يماثلها عنفا وسرعا وبعد أثر .

ولنا من الرصيد الادبي في هذا المجال :

الظل الكبير : لسميرة عزام .

والجامحة : لامينة السعيد .

ويوميات هالة : لسلمى الحفار الكزبري .

وصور من حياتهن : لبنت الشاطىء .

والى جانب الرصد الادبي لحركة الانتقال ، مجموعة أخرى من القصص الواقعية ، تعرض نماذج نسوية رسمتها أديبات عربيات ، يجدن في ذواتهن فطرة حواء ومزاجها ، ومن رصيدنا الادبي في هذا المجال :

قصص شامية : لالفت الادلبي .

تعلمت الحب : لنوال السعداوي .

الخاطئة : لبنت الشاطىء .

* * *

أما الاتجاه الثاني الذي تمثله « كوليت سهيل » فيصور التحرر العاطفي لحواء الشرق العربي اثر كبت طويل مرهق . ويشبه ان يكون صيحة احتجاج على ما عانت أمهاتنا من ضغط وقهر ، أو محاولة تكفير عما آدهن من استرقاق وحرمان .

وممن تميل الى هذا الاتجاه ، صوفي عبد الله وجاذبية صدقي (مصر) وهند سلامه (لبنان) .

* * *

ج ـ الادب الاجتماعي :

وعلى الدرب الذي ارتادته « باحثة البادية » في النسائيات ، ظهرت أديبات معاصرات يعالجن القضايا الاجتماعية والقومية ، في مستوى عال ، هيأ لهن مكانا في القيادة الفكرية العامة .

وأكثر هؤلاء ، يمارسن هذا العمل الادبي في الصحف والمجلات والاذاعة ، ومنهن من تعالج هذه القضايا في كتب مطبوعة .

وفي الصف الاول من الكاتبات الاجتماعيات ، تأتي أمينة السعيد ، الصحافية العربية اللامعة . وهي ترأس

تحرير مجلة حواء ، وتشغل مركزا أدبيا رفيعا في الصحافة العربية •

وبنت الشاطىء التي تولت الدفاع عن قضية الفلاح في مقالات تتابعت على صفحات الاهرام لمدى سنين ، ثم في كتابيها « الريف المصري •• وقضية الفلاح » وقصتها « سيد العزبة » التي تصور بشاعة الاقطاع اللئيم ، في مأساة امرأة خاطئة •

ولمعت سهير القلماوي ، ووداد سكاكيني ، في الاحاديث الاذاعية •

وقضايا المرأة ، هي الموضوع المفضل للكاتبات العربيات المعاصرات • ومثلها القضايا القومية التي تستأثر باهتمامهن ، ويعبرن فيها عن الرأي العام ، لهذا الجيل الواعي المستنير من نساء العرب •

ويتميز أدبنا في هذا المجال ، بعمق المعاناه وحماسة الانفعال وعاطفية التناول ، مما يوفر له الصفة الادبية •

* * *

ولم أشر الى الدور الجليل الذي كان للمرأة العربية في نهضة الصحافة المعاصرة وقد بلغ عدد المجلات النسوية التي أسستها السيدات أو شاركن في تحريرها ، نحو خمسين مجلة ، بالوطن العربي ومهاجر العرب في أميركا • وذلك لعلمي أن مثل هذا الموضوع جدير بأن يستقل ببحث خاص مفرد ••

د ــ الدراسات الادبية :

قلت ان الاديبة العربية ، احتاجت الى اثبات وجودها في المجال العلمي ، بعد أن وصلت الى أرقى الدرجات الجامعية ، بشغلها منصب الاستاذية •

وقد بدأت الاديبة العربية أول ما بدأت ، تدخل الميدان من أصعب أبوابه ، كي تحقق وجودها الجامعي ، فاشتغلت سهير القلماوي ــ أستاذة الادب بجامعة القاهرة ــ بأدب الخوارج والف ليلة وليلة ، وتخصصت عائشة عبد الرحمن : بنت الشاطىء ــ أستاذة الادب بجامعة عين شمس ــ في النصوص الادبية ، فحققت رسالة الغفران لابي العلاء ، ومعجم المحكم لابن سيده ، ثم اختارت النص القرآني الكريم ، موضوعا لمحاضراتها في الدراسات العليا بالجامعة ، تفسره تفسيرا بيانيا يهدى الى أسرار اعجازه البلاغي • ونشرت عائكة الخزرجي ــ بجامعة بغداد ــ نصا محققا لديوان العباس بن الاحنف •

ثم ، ما ان اطمأنت الاديبة العربية المعاصرة ، الى مركزها العلمي في الجامعة ، حتى استجابت في دراستها الادبية لطبيعتها وفطرتها ، فعكفت على التراث التاريخي والادبي للعرب ، تستخلص منه المطوى من آثار المرأة العربية ، وقدمت الى المكتبة العربية رصيدا قيما من التراجم النسوية الامينة ، أهم قيمة لها انها ملأت فراغا كنا نشكوه في مكتبتنا ، وصححت فهم هذا الجيل لمكان المرأة في التاريخ الفكري والادبي للعرب ، وقدمت المادة التاريخية بروح الانصاف والعطف ، وتمثلت الشخصيات النسوية ، في فهم ووعي •

ولم أشر الى دراسات أدبية لكاتبات عربيات ، في اللغات الاجنبية ، كما لم أشر الى نشاط الاديبة العربية المعاصرة في حركة الترجمة ، مما لا يدخل في صميم موضوعنا « الادب النسوي العربي المعاصر » •

واذا كان لي أن أحدد سمة خاصة ، يتميز بها أدبنا النسوي المعاصر بوجه عام • فتلك هي عاطفية التناول •

والمألوف عندنا ، أن أكثر الذين يعالجون القضايا الاجتماعية والقومية ، أو يشتغلون بالمسائل الفكرية ، يؤدونها اداء موضوعيا جافا ، يقوم على السرد التقريري ، والتصوير الآلي لامراض المجتمع ، على حين لا تستطيع الكاتبة العربية ، مهما يكن الموضوع الذي تعالجه ، أن تتخلص من عاطفية الانفعال ووجدانية التناول ، وهذا ما يجعل مشاركتها في الادب والمجتمع ــ ضمانا لتوفر العنصر الوجداني الذي هو جوهر اصالة الادب ، ومناط تأثيره ••

* * *

وأذيل هذا التقرير ، بقائمة لما أعرف ، في مكتبة الادب العربي المعاصر من مؤلفات نسوية ، جمعتها قدر اجتهادي ، مع الاعتذار عما يكون قد فاتني ، عن سهو أو قصور •

شاعر الكويت صقر بن سالم الشبيب

بقلم : حسن الخطيب

ولد (صقر بن سالم الشبيب) في الكويت ونشأ على أرضها ولم يمنعه فقده بصره من التردد على كتاتيب العلم ومجالس الادباء ، ونظم الشعر ولكنه ظل مغمورا حتى اتصل بالامير (سالم بن مبارك الصباح) ومدحه ، فقربه الامير حتى جعل منه شاعره الخاص ، يوليه بعطائه وبنى بيته لما علم بتهدمه ، فانطلق لسان الشاعر يتغنى بكرم الامير وعظمته :

كريم نفى عني هموما أقلها
تذيب أصم الصخر لو حل بالصخر

فشكري له شكر المنابت للحيا
اذا ما اكتست منه ثيابا من الزهر

وما لي لا أوليه شكري والثنا
ولولاه أدنتني الهموم من القبر

وأعلم أني لا أقوم بشكره
ولو أنني أفنيت في شكره عمري

* * *

وأكبر ظني أنك اليوم مانحي
من المال ما أرقى به ذروة النسر

ولا غرو أن أبديت عندك حاجتي
ففزت بها يا ابن الغطارفة الغر

وقد كان الامير يدفع عن الشاعر حسد الحساد وكيد المتآمرين . ولما توفي الامير ظل الشاعر غرضا لسهام الجهلاء من العامة واغراء بعض رجال الدين ، الذين حملوا على الشاعر ، واتهموه بالزندقة والكفر ، وعلى رأس هؤلاء (عبد العزيز بن صالح الاحسائي) وفيه يقول صقر :

يقولون قد أفتى بهجرك شيخنا
أناس بشرقي الكويت تقيم

وطاعتنا (عبد العزيز بن صالح)
سبيل الى باب الجنان قويم

فقلت جزاه الله خيرا فهجركم
لنفسي به لو تعلمون نعيم

وتكثر القالة فيه ، وتحريض العلماء عليه ، والدعوة الى اغتياله ، حتى هم ببيع بيته ، وهجر الحي الذي يقطنه ، فقال يذم الزمان ، وأهله ، الذين ينقادون لداعي الشر :

أظلتني بشرقي الكويت
خطوب الزمتني قعر بيتي

وما بيعك يا بيتي بسهل
ولكن فيك خفت اليوم موتي

أيسهل أن أبيع اليوم بيتا
وفيه أنت يا نفسي ربيت

فذوبي من أساك عليه ذوبي
والا يالكاع فما وفيت

كأنك يا جياع الخطب مني
وقد أفنيت لحمي ما التغيت

ورأى ما يتخبط به قومه من الجهالة والتفرقة الدينية ، والمذهبية ، التي يحمل لواءها فئة اتخذوا خداع الناس مهنة ، واثارة الفتن حرفة ، يدعون الاشراق والكشف الالهي ، والكرامات التي لا تظهر الا للانبياء والاولياء لم يرهب اتهامهم اياه بالزندقة ، ولا محاولاتهم

لاغتياله ، وصب عليهم جام غضبه في قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت مطلعها :

أننعم في الكويت ونحن فيه
عراق تحت سكين الجهالة

ويشير الى الاختلاف الديني ، والفتن باسم الدين ، والجدال الديني الفارغ ، الذي لا يطعم الجائع ، ولا يصلح الفاسد :

علمتهم باتحاد القوم فوتا
لما فيه لمطمعكم علالة

فابدلتم وئام القوم خلفا
لتحظوا بالدقيق وبالنخالة

أيودي بالشعوب سوى اختلاف
يصول على تجمعهم مصاله

أيسمو بالشعوب سوى وئام
بهم يجلو الرقي به هلاله

فلوكانوا أولى ذوق سليم
وكأن لرأيهم بعض الاصالة

هكذا يدعو الشاعر الى الاتفاق والتعاون لبناء الوطن الواحد ، والكيان المشترك ، ونبذ الاحقاد التي يثيرها العلماء ، ويعيرهم بسؤال الناس • وأنهم يصعبون ما سهل الله على عباده ويحللون ما حرم ويحرمون ما أحل • ثم يفخر بنفسه وأدبه وأن له من الماني خير نصير على مصائبه وأعدائه :

رويدك ان للعلياء حاجا
بمن ظلما عليه قد أنخت

ستثأر لي المعالي منك ان لم
تكوني عن جهالتك اعويت

وقد عاش الشاعر أبي النفس صريحا مترفعا عن الدنيا يربأ بنفسه عن مخالطة الجهلاء من الناس الاذلاء من العامة لئلا تذل نفسه وتخمد روحه :

وكم لي في الكويت أولي عداء
بلا ذنب صغير أو كبير

سوى أني صريح القول حر
يترجم مقولي ما في ضميري

أخاف اذا بقيت تذل نفسي
على طمع لذي مال كثير

فتمنحه مدائحها اللواتي
تعز على الفرزدق أو جرير

ولكني كما سميت صقرا
وهل أبصرت ذلا في الصقور

والشاعر هنا يذكرنا بموقف المعري من أبناء زمنه الذين لم يجد بدا من مداراتهم وقال :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا
تجاهلت حتى ظن أني جاهل

وفي تمرده على زمانه ومصائبه فلم يهن ولم يضعف أمام أحداث الزمن كما فعل المعري بالتصبر والاستسلام:

ولما أن تجهمني مرادي
جريت مع الزمان كما أرادا

وهونت الخطوب علي حتى
كأني صرت أمنحها الودادا

كان الشاعر شديد الاعتداد بنفسه واثقا من أدبه •

مأساة حبة المطر

قصة بقلم : وليد الخلاصي

يحكى أنه مرة اشتاقت الطبيعة في السماء العالية لاقامة فرح كبير يشترك فيه جميع أولادها وبناتها ، فأمرت الشمس ان تطلق أشعتها الذهبية في الفضاء كله .. ودعت الريح الخفيف ليرسل أنغامه المرحة ، أما السحاب الابيض كالقطن فقد جاء متمايلا وكأنه الاميرة المتباهية بحسنها وجمالها ، وكان السحاب يحمل فوقه حبات المطر اللؤلؤية وهي تغني انشودة جميلة عن الخير والجمال .

وكان يوما رائعا كأنه العيد ، وأطلت الشمس المعروفة بوجهها الاحمر وحيت الموكب الذي تدفعه الريح وأبعدت حبات المطر الندية أجسادها الرقيقة عن السحاب واستقبلت شعاع الشمس الدافيء لينفذ في شفافيتها اللؤلؤية ويلعب بأحاسيسها ويشيع الحياة في أوصالها ، وكانت الارض في الاسفل تتثاءب في لذة وقد دبت الحياة فيها أيضا .

قال شعاع الشمس اللامع وهو يداعب حبات المطر الندية :

ـ عالم .. عالم واسع كبير تغمره المحبة .. كلهم يعملون .. أنا وانتن وصديقنا الريح ، والناس على الارض .. في الحقول وعلى ضفاف الانهار وفي الجبال .. وفي كل مكان ، الناس يحبون الطبيعة والطبيعة تحب الناس وتخدمهم ، اليس هذا شيئا جميلا ؟

وقالت حبات المطر في سعادة :

ـ ما أسعدنا نحن وانت أيها الشعاع الذهبي .. اننا نجمع العالم كله .. كله يشترك بنا نحن يتقاسمنا ويحبنا .. الشمس والمطر ما أجملنا !!

قال يرد على الذي استكثر عليه اسمه (صقر) يريد أن يحط من شأنه :

يقولون لي يا صقر مالك واقعا
من الكف عن طير القريض على وكر

اذا لم يحلق في فضا الشعر صائدا
طيور معانيه فما أنت بالصقر

وما علموا أن المقادير قد رمت
جناحي عن قوس الحوادث بالكسر

الى الله أشكو أنني في معاشر
يروني من الاعسار كالواو في (عمرو)

لم يمنعه عماه من تذوق الجمال بحسه وشعوره ، فقد تخيل مواطن الجمال ، وصفات المرأة العربية ، ووصف ذلك على طريقة بشار بن برد :

والاذن تعشق قبل العين أحيانا :

فقال صقر :

تلوت بعيني مسمعي صورة البها
بلفظ له منه تكون عقده

فآمن قلبي أنه أوحد الظبا
جمالا وأن قد عز فيهن نده

غزال حريم في الكويت كناسه
وقيصومه بين الضلوع ورنده

تواصل منه الوصل لي قبل علمه
بأني على حكم الصبابة عبده

فرحم الله الشاعر لقد كان شاعر الكويت . غنى أمجاده ودعا الى تحريره وخلاصه من جهالته .

كويت ـ حسن الخطيب

وقالت حبة المطر مسرعة يدفعها النسيم الخفيف نحو أختها : ـ لقد زرت بلادا كثيرة في السنين الاخيرة، أزور بلدا كل موسم ، كنت في السنة الماضية أروي أرض فلاح في الشرق .. سأحدثك عن رحلتي هل تريدين أن أحدثك يا أختاه ؟ ..

فأجابت الاخرى :

ـ أحب ذلك وسأكلمك أيضا عن رحلتي عندما تنتهين من قصتك ..

وهنا بدأت الاولى في الحديث : ـ قلت انني رويت في السنة الماضية أرض فلاح .. وكان الفلاح رجلا قويا ولكنه دائم التطلع الى السماء الواسعة بعيون زائغة يدعو الله ان ينقذ أرضه من العطش ويرسل اليه من عنده فيضا من الماء ليروي النبات المسكين ، وكان الفلاح يزرع القمح .. أنا أحب القمح وسنابله الذهبية .. انه يطعم الملايين ويمدهم بالغذاء .. كنت سعيدة حين أنقذته وجئت اليه مع اخواتي لنروي أرضه الحمراء الطيبة ، وكان من شدة فرحه يحضننا ويقبلنا وهو يسجد لله شكرا ، وعندما انتهت مهمتي عدت الى النهر .. ثم قادني النهر الى البحر ومن هناك عدت الى بيتنا السحاب ..

قالت الاخرى : ـ حكايتك ممتعة يا أختاه ، بوركت ، لقد أديت خدمة عظيمة .. ولكنني أنا الاخرى كانت لي قصة ممتعة أيضا ..

قالت حبة المطر الاولى : ـ وما هي ؟

قالت الحبة الاخرى : ـ كنت في الجنوب هناك.. في افريقيا .. في صحراء محرقة هناك حيث لا ترين سوى الرمال الصفراء التي تعكس أشعة الشمس وكأنها المرآة .. ولكننا رأينا عن بعد قافلة من ناس سود الاجسام والوجوه أوشكوا أن يموتوا من العطش . وكانت الرمال تود ابتلاعهم في جوفها . والهواء الساخن جفف أجسادهم فأصبحوا كقطع الفحم اليابس ، وعندما هطلنا فوقهم أخذوا يشربون في شراهة ويغسلون جلدهم بالماء وهم يهللون ويتصايحون .. ولست أدري يا أختي لم لا يعيشون مثل القوم الآخرين ويشربون في الكؤوس النظيفة .. مساكين .. أليسوا بمساكين ؟؟

قالت حبة جديدة كانت تسترق السمع .

ـ نعم !

ثم تابعت بقولها :

ـ نعم .. مساكين ولكنني رأيت أناسا أكثر منهم بؤسا ..

قالت الحبة الاولى ..

ـ ومن هم ؟ فنظرت الحبة الجديدة الى البعيد وقالت :

ـ لقد رويت مرة أناسا وكانوا كراما في بيوتهم سعداء في حياتهم .. يزرعون أرضهم ويحصدون محاصيلهم ولا سلطان لاحد عليهم ، ثم بعد سنين رويت نفس القوم ولكنهم كانوا أذلاء في خيامهم تعساء في معيشتهم لا يزرعون أرضا بل يستجدون طعامهم .

وقالت حبة كانت تنصت الى الحوار وهي ترتجف من الحزن :

ـ مساكين .. من هم هؤلاء ؟

قالت الحبة ـ ضحايا الحروب المدمرة ..

ثم أعقبت بقولها : ـ وفي فلسطين التي طرد أهلها الاصليون وشردوا في الارض بلا مأوى .

وساد الصمت ، وسكتت الحبات حزنا ..

في ذلك الوقت قدمت حبة مذعورة تلهث من التعب ، حيت الجماعة ثم قالت :

ـ لقد اتيت الآن ، أنا خائفة ، لقد حدثني شعاع الشمس هناك أنه قد تحدث لنا بعض المتاعب .

قالت حبة ساخرة : ـ متاعب ؟

ثم أعقبت حبة مطر أخرى ..

ـ ومن أين المتاعب ؟ وهذا الجو الجميل ..وهذا النسيم الرقيق ، انها تشبه ليالي حلوة قضيتها مرة في جزيرة هادئة على غصن شجرة خضراء .. لا يا أختاه

لا أحد يفكر في المتاعب .. انها تذكرني أيضا باليوم الذي امتزجت فيه بدموع فتاة صغيرة فخففت عنها آلامها فسببت لي السعادة .. أية سعادة !!.

وهنا سكتت الحبة الخائفة عن ارتعاشها وقد رأت جميع أخواتها سعيدات مسرورات بالحياة ممتنات لامهن الطبيعة التي هيأت لهن هذه الحفلة الممتعة ..

وكان الموكب ما يزال فرحا نشيطا .. والانغام قد ملأت رحاب السماء الواسعة اللامتناهية وكانت الطيور البيضاء والملونة تتراقص في الفضاء تشارك الطبيعة أفراحها، والسرور ملك كل كائن حي وهبة لكل شيء في الكون ..

قالت واحدة :

ـ لنسأل الريح ..

ولم يجب الريح على سؤالها ، بل كان يمضي في طريقه يفكر فيما قالته الحبة الخائفة ، ترى هل صحيح أن هناك خطر على حياة السحاب أم أن هذا مجرد وهم وخيال . وبعد انتهاء حفلة الطبيعة تساقطت الحبات مطرا .. كل مجموعة في مكان فمنهم من ذهب ليروي أرضا أو ليسقي ناسا .. كل يسير كما رسمت له الطبيعة دوره.

ثم مضى عام كامل ، وعادت حبات المطر الى بيتها السحاب بعد ان اجتمعت في البحر ليحملها شعاع الشمس بعد ذلك ويرفعها الى السماء . والتقت الاخوات فرحات باللقاء من جديد ، وكانت كل واحدة تتوق الى ان تحكي لاخواتها عما جرى لها ، وان تسمع ما جرى لكل من أخواتها ..

وقالت حبة كبيرة تبدو وكأنها أكبر سنا من الحبات الاخريات .

ـ لننظم الحديث فيما بيننا ففي النظام احترام لرغبة كل واحدة في الكلام والاستماع .

ووافق الجميع على رأي أختهن الكبيرة وابتدأت واحدة الحديث بقولها :

ـ لقد سقينا حقل قطن .. وقد شربتني شجرة في الحقل ودخلت الى جذورها وساقها وأوراقها وهناك شاهدت أشياء جميلة ومنظمة وكنا نمشي داخل الشجرة في نظام وترتيب ، وقد قالت لي الاوراق الخضراء قبل أن أغادرها :

ـ عودي الينا أيتها الحبة الطيبة ، اننا نحبك ، وأجبتها أنا بقولي : أنا أحبك أيتها الشجرة الكريمة التي تعطي الناس كساءهم فتحميهم من آلام البرد ، ثم بدأت واحدة أخرى في الحديث :

ـ أما أنا فما أسعدني .. ساعدت شجرة تفاح يانعة وجعلتها تتفتح عن أزهار بيضاء وبعثت فيها الحياة بكل قوتي ليصير الزهر ثمارا شهية ، نحن وحدنا نستطيع أن نهب الحياة فتصبح البذرة عودا والعود نبتة خضراء تعطي للناس خيرها ..

ولاحظت المتحدثة أن أختا لها تقف ساكنة وقد غشاها الحزن وخبا بريقها فلم تعد تتكلم أو تصغي الى أحد فالتفتت اليها وسألتها :ـ

ـ ما بالك حزينة يا أختاه ؟

فأجابتها هذه بقولها :

ـ لا .. ليس في الامر شيء .. انما أنا متعبة من الرحلة .

فقالت الاولى ملحة :

ـ لا . هناك سبب يدعوك الى الصمت .. بحق الاخوة التي بيننا حدثينا عن شجونك ..

فلم تستطع الحزينة أن تظل مخبئة سرها وقد دعاها الى ذلك « حق الاخوة » فراحت تحكي لحبات المطر ما جرى لها ، قالت في صوت ضعيف كأن الحزن يخنقه :

ـ عندما نزلت على الارض (لنؤدي مهمتنا) سقطت على وردة حمراء فأخذتني الى قلبها لاجد نفسي سجينة بين أذرعها .. وأحسست بالضيق بادىء الامر حتى شعرت بحرارتها وقالت لي :

ـ يا حبة المطر .. يا لؤلؤة الطبيعة السخية كنت

انتظرك منذ حين .. أنا أحبك يا حبة المطر الرطبة ابقي الى جانبي اني محتاجة اليك .

وكأن في كلمات الوردة سحرا خدرني وجعلني ارتمي في أحضانها لاعطيها من رطوبتي فانعشها وتعطيني هي من حرارتها فتدفئني . وعشنا أياما سعيدة .. حدثتني فيها عن أحلامها وآمالها وعن غرامها بالبلابل المغردة وخرير الجداول المغنية ، وحدثتها عن حياتنانحن ورحلاتنا السنوية وما ان سمعت عن رحلاتنا حتى شهقت وقالت :

ـ يعني انك ستغادريني ..

فقلت لها :

ـ قبل أن أراك فكرت في ذلك ، أما الآن فأنا لا أستطيع ياوردتي .. لا أستطيع ..

وتعاهدنا على البقاء معا مدى العمر .

ثم أتى شعاع الشمس في يوم وحسبته قد اتى ليبارك حبنا ، الا انه جاء ليقول لي :

ـ هيا بنا أيتها الحبة اللطيفة لقد آن الاوان ولنعد الى السحاب ..

وصرخت الوردة باكية : أرجوك أيها الشعاع دعها لي .. اليس كذلك أيتها الحبيبة ؟؟

وقلت أنا : ـ نعم أريد أن أبقى مع وردتي ..

الا ان الشعاع قال :

ـ من الواجب أن تعودي الى عملك فوراءك أعمال لا يجب أن تتهربي منها أيتها الحبة .. لو ان كل واحدة منكن مشت على هواها لاختل توازن أمنا الطبيعة وأظن هذا لا يروق أحدا منكن . وبكت الوردة ، الا ان الشعاع لم يمهلني فقد بدأ يحملني معه وأصوات الوردة ونحيبها يقطع أحشاء قلبي وأحشاءها وكانت تصرخ في يأس :

ـ عودي الي ياحبة المطر .. يا حبة قلبي ..

وكنت أبكي أنا أيضا وأقول : ـ سأعود ياوردتي .. سأعود مؤكدا .

وانتهت حكاية الحبة والجميع قد سكت حزنا مقدرا لموقف أختهم وفراقها عن وردتها الجميلة المخلصة .. وتأثرت الحبات بحكاية الحب التي تشبه الاساطير تحكى للابناء والاحفاد .. قصة الحبة المحبة .

كن يتنهدن ويستعدن في أذهانهن أياما جميلة أو يتمنين أياما قادمة كتلك التي مضت .

وبدأت الحبات تتسابق لارضاء اختهن المحبة عسى أن ينسوها قصتها المحزنة ، ولكن جهودهن لم تفلح اذ عادت الحبة صامتة كما كانت .

وظل السحاب يسير يدفعه النسيم ، بينما الحبات اللؤلؤيات محمولة على بساط الغمام الهلامي وكأنه قلب الوردة الحمراء الذي جعلت منه العاطفةحساساكالسحاب رقيقا كالنسيم ..

وقالت الحبة الخائفة التي أبدت مخاوفها في السنة الماضية :

ـ أنا لن أطمئن حتى يقول لنا الشعاع أنه لا خوف علينا هذه السنة ، لقد أقتربنا من المحيط الهادىء ، ولقد حذرنا الشعاع مرة من أن لا نقترب من تلك المنطقة .. ولكن الريح .. الريح هو الذي يسيرنا كما يشاء من غير أن يحسب للخطر حسابا ..

كانت تتكلم .. الا ان أحدا لم يصغ اليها سوى واحدة قالت لها :

ـ ولم لا نذهب الى ذلك المكان .. أنا أحبه ففيه ناس طيبون .. وفيه فاكهة وفيه ورود .. الورود في كل مكان .. على الاعناق وفي المنازل وفي شعر الفتيات الجميلات .. أنا أحب ذلك المكان المسالم .

وفي تلك اللحظة قال شعاع الشمس بصوت مبحوح :

ـ لم يعد مسالما أيتها الاخت .. لم يعد أبدا !!

قالت واحدة : ـ ومن حدثك عن هذه الاسرار أيها الشعاع ؟

ـ يقولون ان هناك ترابا كثيرا يملأالجو .. تراب أسود كأنه الموت .. انه يعفرني ويثقلكم أيتها الحبات اللؤلؤية ، لقد أمسك مرة بحبات فتهاوين الى الارض ثقيلات ، ولم يضر أهل الارض فحسب بل حمل اليهم موتا غريبا .. فسمم طعامهم واتلف ماءهم فتغيروا ولم يعودوا سليمين كما كانوا من قبل .

قالت واحدة : ـ ولكن ما السبب أيها الشعاع ..

السبب في كل ذلك ؟

ـ يقولون ان بعض الناس يجربون نوعا من القنابل الذرية .. اذا انفجرت سببت مثل هذا التراب المخيف والذي وصفته لكم ..

فارتعشت الحبات وأصابها الفزع الا ان واحدة حاولت أن تزيل عنهن تلك الكآبة فنظرت الى أسفل لتجد زوجين سعيدين تحت شجرة وافرة الظلال ، قالت الحبة :

ـ انظرن ما أجمل الحب .. ما أجمل أن يحب الناس في ظل السلام !!

ونظرت الحبات الى أسفل وتنهدن ثم هتفن بصوت واحد :

ـ ما أجمل الحب !!!

كان المنظر رائعا وقد ارتمت الفتاة التي زينت جيدها بعقد من الزهور البيضاء على كتف زوجها وجعل هو يمسح على شعرها في عطف وحنان ..

فهتفت الحبات : ـ ما أجمل الحب في ظل السلام !!

قال الشعاع متشائما : ـ اذا دام ذلك الحب .. اذا كان هناك سلام . فعاد الاسى يملأ الحبات وتابع الشعاع قائلا :

ـ ان هذا الغبار .. التراب الذري يهدد لوني وصفائي ويهددكم .

فتضايقت حبة مطر من حديث الشعاع وقالت معاتبة :

ـ لم التشاؤم أيها الشعاع ؟ .. هلا تركتنا نبارك الحب بين الناس ودعك أنت من الخوف لم تحاول أن تفسد تلك الروعة التي نشاهدها ؟ .

وقبل أن تكمل حديثها صدرت عن أخت لها آهة مكتومة وتطلع الجميع اليها ليجدوها تشير الى غمامة سوداء تزحف في رهبة نحوهن :

ـ الغبار .. الغبار ، صرخ الشعاع مذعورا :

ـ انه التراب الذري .. تفرقوا قبل أن يقتلكم .

ولكنه اختفى قبل ان يكمل كلامه وخنقته حبات سوداء من التراب ، ثم تفرقت حبات المطر مذعورات وقد بددهن الغبار ..

ثم تهاوت حبات تلاحقهما ذرتان من الغبار .. صرخت واحدة :

ـ النجدة .. انها تلاحقني .. انني أهوى ، .. فأجابتها الاخرى بصوت ضعيف وقد لصقت بها ذرة من التراب الاسود :

ـ لا فائدة .. أيتها الاخت لقد هلكنا .. ولكن لم ؟ لم يثيرون هذا الموت .. كنا أسعد حالا .. وكذلك الناس .. اما الآن فقد انتهينا ..

ثم هوت الى الارض .

وكانت حبة المطر قد استيقظت من ذكرياتها .. وانتبهت الى الضجة العالية ، ورأت بعضا من أخواتها يستنجدن ، وظلت حائرة الى أين تهرب ؟

وفجأة التفتت لترى ذرة تراب مشوهة رهيبة تكشر عن أنياب السوء لتنشبها في جسد الحبة النحيل الشفاف.. فأفلتت منها وراوغتها قليلا وما أن تخلصت منها حتى شاهدت ذرة تراب أخرى تنظر اليها وكأنها الصيادالماكر يفكر في ايقاع فريسته ، فارتعشت الحبة وحاولت أن تهرب لكن الذرة انقضت عليها في وحشية والتصقت بها ..

وصرخت حبة المطر بكل قوتها : ـ انقذوني . سيمزقني التراب الذري .

ولما علمت أن المصير لا محالة واقع ، هتفت قائلة:ـ أنا لن آسف على حياتي .. انما أشفق على الزوجين اللذين سأنقل اليهما الموت ولن انعشهما كما كنت أفعل من قبل أبعث الخير الى كل الناس .. سيلعنني القمح.. وسيهوى القطن ميتا .. وستذبل الورود والرياحين .. ووردتي محبوبتي قد اقتلها بيدي وكنت من قبل أعطيها الرطوبة والحنان .. يا الهي .. وسيموت الناس الذين أحبوني .

لكن لم .. لم هذا التراب ؟ لم يثيرون مثل هذا الموت ؟ .. وازدادت أوجاع الحبة حين اشتد التصاق الذرة الترابية بها ، ولم تعد تستطيع بعد ذلك الكلام .

وانقضت بسرعة نحو الارض لا تتحرك .

لقد قتلها الغبار .



شعر ..

محمد كنا كري

... وتقول لي عيناك : لا تقلق   والمرشف الوردي ، والمرفق
وتأود .. أشكو ، فتحملني   راحاته ، لمواطن الزنبق
وتقول لي يا شاعري ، متع   ملفوفة في شالك الازرق
لا ترتعش ، فالليل موعدنا   لا ترتعش يا حلو ، لا تقلق
وأنا ، أنا ، موج يحملني   أشواقه ، فأود لو أغرق ..
أجوب وحدي دونما أمل   بحر الحياة ، ودونما زورق ؟.
يا فتنتي ، أنا لم أعد شفة   تصبو .. تعربد .. تشتهي .. تعشق
أنا لم أعد طفلا تخدره   أنغام مرضعة .. فلا يأرق
حطمت قلبي ، انه أبدا   قيد لروحي أينما حلق
وطفقت أرجو كل بارقة   حملي لنبع العالم المطلق
للثغر ، ثغر الشمس في أفق   لولا تجلي الله ما أشرق
للصبح ان لبست مفاتنه   برد السنا ، لليل ان أطبق
للضوع ، سر الضوع في زهر   للغصن ، للعصفور ان زقزق
للعمر في أثواب ميعته   وله ، اذا بأفوله استغرق
للناس ، دنياهم .. طبائعهم   للالمعي بهم ، وللاحمق
للشر .. للخير العميم ، وللقدر المحتم أمره ، المسبق
لدوافع القتل التي امتزجت   بدم المريض .. وللدم المهرق ..
ولمن لامر في خبيئته   ضحى ، وأنفق كل ما أنفق
للشهوة الرعناء ، لا قدر   من دون قدرتها ، ولا فيلق
للكون في أعماق جوهره   ولخالق للكون ، لم يخلق
يا فتنتي ، أنا لم أعد شفة   تهفو اليك .. وخافقا يعشق
ولربما يوما أعود ..!! ولكني أعود مهدما ... مرهق
أمشي اليك ، كأنني شبح   تخشينه ، ان طل .. أو حدق ؟..
فهل الذي قد كان يجمعنا   ألقاه .. أم بجحيمه أحرق ؟..
سيان عندي ، ان فؤادك للماضي تنكر ... أم له صفق
أو لم أذق من كل معرفة   خمرا ، ولا كالخمر .. لا أعتق ؟!

محمد كناكري

من شعرائنا القدامى

(أحمد بن محمد المعروف بابن المنلا)

قال المحبي مصنف نفحة الريحانة : فمن كلامه الدائر بين الرواة ، المرتصف درا أصدافه الافواه ، هذه القطعة من موشح أطلعها منبره ، وبعث بها الاشجان لنار الوجد مثيرة ، وقد عارض به ابن سهل الذي يقول في مطلعه :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمي … قلب صب حله عن مكنس

وهو من الموشح الذي يتسلى به قلب المحزون ·

رب ريم رام قلبي فرمى … فيه سهما جاء من غير قسي
من رأى ظبيا أرانا أسهما … من لحاظ كعيون النرجس

يا نديمي قد صفا وقت الهنا … فاملأ الكأس وعجل بالطلى
وأدرها خمرة تولي المنى … فزمان الانس بالشرب حلا
والحيا قد البس الروض السنا … وعلى الدوح من الزهر حلا

وحكت بالانجم الارض السما … اذ غدت بالزهر منها تكتسي
وحبا الاغصان طردا معلما … حينما ماس بأبهى ملبس

ما ترى يا صاح أغصان الربا … ماثلات القد من خمر السحاب
رنحتها سحرة أيدي الصبا … فصبا القلب اليها باكتئاب
ومن الزهر لها أغلى قبا … ومن الدوح لها عالي القباب

نقطتها السحب درا مثلما … كست الارض بثوب سندسي
وشذا عرف نسيم هينما … وكذا يفعل ذاكي النفس

ما للاح مذ لحا طاب الهوى … في حبيب وجهه يحكى القمر
لذلي في حبه مر النوى … وارتكاب الهول يوما ان خطر
ما على من نجمه فيه هوى … حينما صد دلالا ونفر

أحوري اللحظ معسول اللمى … فاحم الشعر شهي اللعس
ثغره ابدى لنا برق الحمى … وأتيت الشعر ثوب الفلس

يا له بدرا حمى عني الكرى … قده والطرف عضب وأسل
في دجى شعر له بدر سرى … وبشمس الوجه ليل قد نزل
خنث في جفنه أسد الثرى … وعلى أعطافه لين ودل

ساحر المقلة معشوق الدمى … قمر الافق وظبي المكنس
ذو لحاظ كم أراقت من دما … وهي تفدى بالجوار الكنس

من شعرائنا المعاصرين

بشارة الخوري « الأخطل الصغير »

بقلم : محمد ثابت ابو داود

لا أدري من الذي دفعني للكتابة عن الاخطل الصغير ، هذا الشاعر الذي ملأ الشرق بقصائده الجياد ، وشغل الناس بأغانيه العذاب ، وأذهل الادباء المحدثين بقوة شعره ومتانة لغته وحسن اختياره للمعاني .

وشاعرنا اليوم يعيش في عزلة تكاد تكون تامة عن المجتمعات الادبية والندوات الشعرية ، يعيش في بيت صغير منزو في بيروت ، محاط بالاشجار الوارفة الظلال، ومسيج بسياج من الازهار العطرة الفواحة .

أما من الذي سماه بالاخطل الصغير ولماذا ؟ فلنترك الشاعر يحدثنا عن ذلك فيقول : (كانت الحرب العالمية الاولى وكان الارهاب العثماني على أشده في سوريا ولبنان ، وكنا في عهد النفي والمشنقة وكانت الحاجة ماسة الى اثارة الخواطر في البلاد العربية تعجيلا ليوم الخلاص وهي أمنية البلاد العربية في ذلك العهد ، ولم يكن يجرؤ واحد منا ولو في الحلم أن يرسل كلمة في سبيل النهضة ولو همسا ، فكيف به اذا هو شاء أن يرسل في ذلك السبيل قصيدة يترجع صداها ؟ ، وكان يعجبني من الاخطل خفة روحه وابداعه في اصطياد المعاني يقودها ذليلة الى فصيح مبانيه ، وفوق ذلك فقد كان الشاعر المسيحي الفذ تتفتح له أبواب الخلائف فلا يملؤها لذة وطربا ، بل يملؤها ذلك الشرف الذي لا يبلى والمجد الذي لا يفنى .. فرأيت وأنا أدعو للدولة العربية وموقفي منها موقف الاخطل من دولة بني مروان أن أدل على حقيقة الشاعر المتنكر فلم أر « كالاخطل الصغير » أوقع به ما كانت تقطره القريحة المتألمة من شعر) ١٠٠٥ هـ

ولكن مما يؤسف له حق الاسف أن أكثر الشعر الذي قاله بشارة الخوري في ذلك العصر والذي ظل يتردد على شفاه ملايين العرب فترة من الزمن قد ضاع ولم يبق منه سوى شذرات صغيرة وأبيات قليلة تصور لنا شاعرية هذا الرجل ، وعواطف شعبه في ذلك العهد ، فلنستمع له وهو ينشد :

ألجم لسانك ألجم
فالموت للمتكلم
والسجن أكرم صاحب
والنفي أيسر مغنم

وتذكرنا هذه القصيدة بقصيدة الشاعر المرحوم الرصافي عندما يقول :

يا قوم لا تتكلموا
ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز الا النوم
وتثبتوا في جهلكم
فالعار أن تتعلموا

وتتصف نفسية شاعر الاخطل الصغير باللامبالاة ،

وتظهر لنا حياته وهي تسبح في بحر خضم من الفوضى ولا أدل على صدق قولنا من ضياع أكثر شعره وكفى أن تبلغ به الفوضى حدا أن يهمل جمع شعره في ديوان، حتى يأتي من يأخذ على عاتقه هـذا الجمع ويطبعه في ديوان الهوى والشباب .

ومع هذا كله فحياة شاعرنا ، حياة مملوءة بالحب والهوى ، فهو كالاخطل الكبير عندما يقول :

واذا أقول صحوت عن أدوائهـا
هـاج الفؤاد دمي أوانس حـور

فيقول الاخطل الصغير :

كفانـي يـا قلب مـا أحمـل
أفي كـل يـوم هوى أول

ولست أدري أحقا يضيق الاخطـل ذرعا بالحب الجديد الذي يتسرب الى قلبه كـل صباح مـع تسرب أشعة الشمس الى غرفته ؟ انه يقول :

أأنـا العاشـق الوحيـد لتلقـى
تبعـات الهـوى عـلى كتفيـا

أنا لا أظن هذا تبرما بالحب ، ولكني أعتقد وأؤمن بأنه دلال المحب وتكبر الصب المدنف لقد بلغ شاعرنا من العمر عتيا ، ومع هذا نراه يثور ويغضب عندماينصحه أصحابه بترك الحب وتطليق شعر الغزل ، فنراه يجيبهم بقوة وعنف :

كذب الواشي وخـاب
من رأى الشاعر تاب
عمـره فجر من الحـ
ـب وليل من شـراب

نعم ان الشاعر لن يتوب ، فهو خلق ليحب وانه يحيا لكي يحب ، غير أن الحب عند الاخطل الصغير هو حب الروح وحب الجمال الملائكي المجرد ، وليس حبا ماديا ، فليس الحب في رأيه حب الخد الاسيل والشعر الطويل والصدر الثائر والساق البضة .. ولكنه حب المثل العليا والاخلاق السمحة ، ومن رعشات هذا الحب العلوي يرسم لنا صورا جديدة ، ويترجم لنا أحاسيس صادقة ، كما نرى ذلك في قصيدته « هند وأمها » وهي قصة فتاة اجتازت مرحلة الطفولة الى عتبة الشباب جاءت أمها يوما :

فقالت لها : ان هذا الضحى
أتانـي وقبلني قبلتين
وفر فلما رآني الدجى
حباني من شعره خصلتين
ومـا خاف يا أم بل ضمني
وألقى عـلى مبسمي نجمتين
وذوب من لونـه سائلا
وكحلني منه في المقلتين

واننا نلمح من هذه الابيات تلك الصور الرائعة واننا نحس بهذه الخفة وتلك الرعشة ، واننـا نسمع تلك الموسيقا الثائرة حينا الخافتة أحيانا .

والاخطل الصغير شأنه شأن كل شاعر يعيش على ذكرياته الجميلة ، فاذا ما هجرته حبيبته يوما أعاد على أذنيها تلك الذكريات ، ذكريات اللقاء الاول والقبلة الاولى :

مـا كان أحلى قبلات الهوى
ان كنت لا تذكـر فاسـأل فمك
تمر بـي كأنني لـم أكـن
ثغرك أو صدرك أو معصمك
لو مر سيف بيننا لـم نكن
نعلم هـل أجرى دمي أو دمـك

وماذا يريد الشاعر من فتاته ؟ انـه لا يطلب منها

أكثر من جلسة في ظل شجرة من الصنوبر ، يمسك بيدها ، ثم يقبلها من فمها ، فالقبلة عند شاعرنا هي الغاية القصوى والهدف الاخير الذي يسعى اليه ، فهي سر الاسرار وحكمة الحب :

هكذا أهل الغزل كلما خافوا الملل
أنعشوه بالقبل

واللغة التي يتخاطب بها العشاق عند الاخطل الصغير هي لمس الشفاه للشفاه فالقبلة هي رسالة العاشق لمعشوقه :

رسالة من فمه لفمها
كذا رسالات الهوى تختصر

ترى أي الوسيلتين أحب وأجدى عند العشاق ؟ أهي طريقة الاخطل السابقة أم طريقة شوقي عندما يقول :

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عيني في لغة الهوى عيناك

وشاعرنا مجدد بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فهو دائم الخلق والتجديد في صوره الشعرية ، وانه يعطينا صورا ذات روعة وجلال وجمال ، وما ذلك الا لان حبه خالد متجدد فلنسمعه ينشد :

فأنا بصدر حبيبتي
كفراشة في قلب ورده

ورمى الهوى بي فارتميت
وكان نهداها •• المخده

وبينما نحن في هذه النشوة العارمة وفي هذا الجو الساحر المخلوق من قبل الشاعر ، اذا بنا نتوقف فجأة عند معنى جديد ، فما الحب ولا الجمال حتى ولا الحبيبه هو كل ما يطلبه الشاعر ويريده ، انه يريد الشعر السامي الحلو الجميل فالشعر أسمى وأكبر من كل شيء ، الشعر أسمى من الحسن والجمال :

ما الحسن لولا الشعر الا زهرة
يلهو بها في لحظتين النظر
لكنها ان أدركتها رقة ••
من شاعر أو دمعه تنحدر
سالت دماء الخلد في أوراقها
ونام تحت قدميها القدر

وهذا الشاعر الذي وضع الشعر فوق كل شيء ، نراه يفضل النار المحرقة على الجنة المحببة من أجل حبيبة القلب فلنضع اليه في قصيدته « دع لي سلوى » •

ولو أن النعيم كان جزائي
في جهادي والنار كانت جزاها
لملأت السماء شكوى غرامي
فشغلت الابرار عن تقواها
قلت يارب أي ذنب جنته
أي ذنب لقد ظلمت صباها
دع لي سلوى تكون حيث تراني
أو فدعني أكون حيث أراها

وشاعرنا يحب الخمر المعتقة فهي روحه ومنهاوحيه والهامه ، غير أنه ذاتي في مشاعره أناني في حياته ، لا يعترف بحياة بعد حياته ولا بنشوة بعد هيامه :

ولد الهوى والخمر ليلة مولدي
وسيحملان معي على ألواحي

فهو هنا تلميذ لابي نواس عندما يقول :
لم يكن لي غد فأفرغت كأسي
ثم حطمتها على شفتيا

وأخطلنا الصغير عاش حياته في راحة بال وراحة جسم ، فهو يكره التعب ، ويعيف النصب ولذلك نراه

يستبعد عن خياله فكرة الموت ثم البعث من الموت ، فاما أن يكون العمر كله موتا متصلا واما أن يكون كله حبا وسكرا :

حكمة الدهر أن نعيش سكارى

فأجمعالي الكؤوس والاوتارا

وأخيرا نظلم شاعرنا اذا صورنا شعره كله عبارة عن شعر غزل بامرأة أو بخمر ففي شعره - والحق يقال - نفثات شعرية اجتماعية ووطنية ، ومن نفثاته الاجتماعية قوله :

رب هل نصفه من ولدين

خرجا من مصدرين افترقا

فاذا الموسر يكسى حلتين

بينما المعسر يكسى الخرقا

وهي معضلة صعبة حار فيها عقل شاعرنا الاخطل كثيرا ومع ذلك لم يجد لها حلا معقولا : واشتاق شاعرنا الى البطولات وهي متمثلة بسيف الدولة ، والى تسابيح المجد وتراتيل الهوى وهي تخرج من فم الشاعر العظيم المتنبي ، عند ذلك احترم حلب الشهباء وقال فيها :

ياروضة الادب الينبع

وحصن سوريا المنيعا

من كان كوكبه جبينك

لن يذل ولن يضيعا

وفلسطين .. هذا الجرح الذي لا يزال ينزف دما ذكيا ، أحمر نقيا وهبها الاخطل الصغير روحه وشعره وقال يبكيها :

فلسطين أفديك من دمعه

تهاوت على بسمة حائره

تعانقتا فاستحال العناق

لهيبا على شفة ثائره

وأخيرا لقد تغنى بشعر الاخطل الصغير أساطين النغم في بلادنا ، فهذا عبد الوهاب يغني له الهوى والشباب - جفنه علم الغزل - الصبا والجمال - ياورد مين يشتريك ، وها هي أسمهان تنشد من شعره :

أسقنيها بأبي أنت وأمي

لا لتجلو الهم عني ، أنت همي

وقد رثاها الشاعر بقصيدة عصماء مطلعها :

عند البلابل بين السفح والوادي

بعض الاحاديث عن شجوي وانشادي

ولعلنا لا ننسى في هذا المجال أغنية (فيروز) الرائعة وداد ، وهي قصيدة نظمها بشارة الخوري لابنته المسماه وداد ومطلعها :

يا قطعة من كبدي

فداك يومي وغدي

وداد يا أنشودتي البكر

ويا دمعي الندي

وستبقى هذه القيثارة تعزف ، وستظل هذه الانغام تتصاعد وتتعالى أبد الدهر ، ذلك لان شاعرنا غني للخلود لذلك فسيبقى خالدا في دنيا الادب وعالم الشعر ، وسيعتكف كل محب للادب والشعر في محراب « الهوى والشباب » ليعيد تسابيحه ، وينشد تراتيله .

كلمات دامعة

قصة بقلم : محمد رهاوي

فجأة وجدتها أمامي بقامتها الفارعة ، وعينيها العسليتين الجميلتين ، وشعرها البني الطويل ، وقسماتها الحلوة المنمقة ، وقد قالت لي وهي تتطلع الي بثبات : — هل تسمح لي بأن أدخل ؟

وغمرني ذهول غريب وأنا أتأمل مليا الملامح والقسمات ، وخيل الي وأنا أسمع كلماتها المرتبكة أنني أرى الدمع يغلف الجفنين ويظلل المقلتين ، فلم أتمالك نفسي ،، شعرت بعرق غليظ ينتفض في جانب رأسي ، وبقلبي يهبط ، لكن بشدة وعنف لم أتوقعهما من قبل،، وسحبت ناظري الى الارض ، وأنا أكاد أسقط ،، بعد غياب دام خمسة أعوام ، أجدها هكذا فجأة في المكان نفسه ، وفي الوقت الذي اعتدت أن أراها فيه ،، لو يقف الزمن ويكف عن السير ،، ولو لفترة ،، فترة ليست بالطويلة يقف عندها ،، حينذاك كان بالامكان أن يطمئن الانسان الى سعادته ، وحبه ، وهنائه ،، تلك الفترة التي ينبض فيها القلب ويدق بعنف للمرة الاولى ،، تلك الساعة الرهيبة التي يتخاذل فيها الجسم وتسري فيه حمى دافئة لذيذة لا تنسى ،،

ودخلت تحمل في وجهها فجوات من الهم ، وخطوطا من الالم ،، غير أنها حاولت أن تبدو مرحة ، فرسمت فوق شفتيها ابتسامة صفراء مغتصبة ، وخطت الى الداخل وأخذت تحملق في أشيائي التي كانت مبعثرة دونما نظام ،، طاولة الجوز الكبيرة كانت على عهدها بها لم يتغير مكانها وسط الحجرة ، والخزانة الصفراء المزركشة كانت تسند ظهرها الى الجدار ، وأصص صغيرة من زهر الفل والقرنفل كانت مرصوفة على حافة النافذة ، وكتبي الكثيرة مبعثرة على الطاولة المستديرة ، والمذياع الكبير بجانبها ، وملابسي المختلفة معلقة على المشاجب ،، وكان كل شيء على عهدها به لم يطرأ عليه أي تبديل أو تغيير ،، وعبرت الحجرة الى مرسمي ، فأخذت تتصفح الرسوم والالوان والفرشاة والمقعد الخشبي المتحرك ، وقد تراكمت عليه أنواع شتى من الالوان . وتسمرت وهي تحدق الى الصورة الكبيرة ذات الاطار الذهبي والتي لم تتم بعد ،، قالت وعيناها ما زالتا ترمقان الصورة : — ألم تتمها بعد ،،؟

وأحسست بشوك يثقب حنجرتي ويمنعني من الكلام ،، هذه الصورة لشد ما أحبها وأمقتها معا ،،

انني أتذكر جيدا ، لا أنسى شيئا البتة ، أتت الي في يوم من أيام الربيع المشرقة الزاهية — وكانت ترتدي ثوبا بلون السماء ترصعه دوائر صغيرة بلون القمر ،، كانت جميلة جدا في ذاك اليوم — أو انه تراءى لي ذلك على الاقل ،، واحتضنتها — كعادتي معها — وقبلتها قبلات حارة كثيرة نثرتها على عنقها المرمري وعلى جبينها وشعرها ،، ذلك الشلال المتماوج لشد ما لثمته وضممته ،، وقد قالت آنذاك وهي تمسح على شعري :

— ألا ترسمني ؟

فلم أجبها ، وانما حدقت اليها وضحكت كثيرا ، وهمست في أذنها بكلمات رقيقة عذبة ، وأشارت الى بيت جميل تحيطه حديقة صغيرة ، بدا في لوحة لي رسمتها منذ أشهر وقالت : لو أن لنا بيتا كهذا ،،

فأجبت بثقة : سيكون لنا مثله ،،

وغرقنا في موجة دافقة من الضحك والسرور والغبطة ، ونحن نرتشف الشاي معا ، قالت ونظراتها تتفرس في وجهي :

— ليست طلباتي كثيرة ،، كل ما في الامر أنني أحب الرحلات ، أحب أن أصعد الجبال ، وأركب

البحر ، وأسافر الى بلاد بعيدة أتعرف على آفاقها التي ليس لها حدود ، وأمتع نفسي بمباهج الدنيا ولذائذها

ـ وقلت لنفسي وقتئذ : ما أشد مرح هذه الصبية الغرة ، انها تبدو كطفلة صغيرة القت رأسها على الوسادة وحلمت بلعبة جميلة أو كرة .. انها لتبدو جد سعيدة ، وأفقت على قولها :

ـ سيكون لنا أولاد كثيرون .. أليس كذلك ؟.. ألا تحب الاولاد ؟..

لا أدري ما الذي انتابني في تلك اللحظة ، فقد شعرت بالمرارة تدمرني ، وبالرجفة تسري في أوصالي ، هؤلاء الاكباد الذين يدبون على الارض كزهور يانعة ، وأنوار مشرقة لشد ما أحبهم ، لكنني لا أريدهم .. قلت لوالدتي وأنا صغير عندما رأيتها تخص أخي الذي يصغرني بعطفها : لماذا تحبينه أكثر مني ؟

ولمحت اذ ذاك وأنا أحدق الى عينيها السوداوين ، وأنعم النظر في وجهها السمين ، وقامتها القصيرة .. لمحت دمعتين تطلان من عينيها ، وكأنهما شاهدان على الحب ، حينذاك عرفت أن والدتي تحبني جدا ، وان كانت تخص أخي بعطف أكثر ومنذ ذلك اليوم نفرت من أخي ، ومن الاطفال الصغار وحين تطلعت الى الفتاة التي أحبها ، وكانت عيناها مبللتين ، وتراءى لي وأنا أمسح الدموع بشفتي أن التعابير تغيرت ، .. قلت وأنا أضمها الى صدري : لماذا تبكين ؟ هل من شيء تشتكين منه ؟.. غير أنها لم تجب ، الا ان التعابير كانت تحكي خيبة أمل كبيرة .

وقمت بالرغم مني لارسم هذه الملامح التي تزرع الحب في القلب بالرغم من كل شيء ، وعندما استوت على الكرسي شعرت بالعجز يأكل مشاعري ويفري قلبي ، هذه الملامح والتعبيرات انها تعذبني كثيرا .

اني أتمنى فقط ـ لا أريد شيئا سوى ذلك ـ أن أرسمها بصدق .. غير أنني لم أستطع ، شعرت ازاءها بشعور غريب لم أدر كنهه ، كل ما في الامر أن التعابير والملامح كانت ـ كما خيل الي ـ ناقصة ، كوجه ميت تستطيع أن تتعرف عليه بسهولة الا أن روحه تظل بعيدة عنك .. وعدت الى هذه الصبية التي تفصلها عني معالم ليس لها حدود .. عدت التهم القسمات والعيون ، والشلال المتماوج ، والعنق المرمري .

قالت لي وعيناها مغروستان في الارض : الا تحبني ؟

وشعرت بأنين كريه في قلبي ، وبألم قاصم في ظهري .. لقد كانت أمسياتنا فيما مضى بهيجة طلقة مشرقة كنور قمر ، ولم يكن يعتريها مثل هذا الفتور كما هي الآن .. ان هناك أشياء كثيرة في قلوبنا لا نستطيع أن نحكم عليها بأنفسنا ، وانما يبقي الحكم عليها للزمن وحده ، فقد يكشف الزمن عن خطلها في أحايين كثيرة ، وبالرغم من ذلك فان القلب يحتفظ بأشياء بعيدة الغور والتأثير ، تعيش معه حتى آخر نبضة فيه .. تماما كما يجد الحفار في الارض الجذور المتبقية عن النباتات .

وعادت تجابهني بالسؤال : ـ أصدقني القول ، ألا تحبني ؟

قلت وأنا أتشاغل بتقليب أوراق كتاب بين يدي : ألم تتأكدي بعد ؟

ـ اذن لماذا لا تتزوجني ؟

وعندما نظرت اليها من خلال الاوراق ، كانت تبكي ونشيجها يشتد .. وها هي الآن تبكي من جديد وتلمست أثر الدموع في قلبي اذ تأكدت ان هذه الصبية التي تفصلها عني خطوات قليلة والتي هي الآن في حوزة رجل آخر .. كانت تعيش معي مذ كنت صغيرا،وشعرت برغبة ملحة تجتاحني في أن أقوم وأحتضنها ـ كعادتي معها ـ غير أنني شعرت بجسمي يتصلب وقدماي تشدان بعنف الى الارض ، ولما لم أتحرك التقطت منديلها وهمت بالذهاب ، الا انني سارعت فأمسكت بيدها التي كانت كقطعة من الثلج واحتفظت بها بين يدي .. قلت : ـ أبهذه السرعة تذهبين ؟

وجمد الكلام في حلقها وهي تحدق الي بعينين ما عرفا سوى الحب .. هذه الصبية ذات العينين المضيئتين

•• والفم الخمري الصغير ، لشد ما أحبها •• اني لم أتصور قط انني سأفقدها الى الابد •• وعدنا الى الصمت •• لم يكن بمقدور أي منا بعد تقادم العهد •• وبعد أن توقفت البذرة الكبيرة في قلبينا عن النمو •• لم يكن بمقدورنا أن نجيب أو أن نتناقش ، وشعرت وأنا أستعيد الامور أنني تافه جدا ، لم يكن باستطاعتي ، وأنا في غمرة الحب ـ اذ كانت بين يدي ـ أن أقرر ما اذا كنت أستطيع أن أتزوجها أم لا ؟ •• كنت قانعا بالحب الكبير الذي يعمر قلبينا ، وبساعات تمضي كدقائق من عمر الزمن نخط فيها آمالنا وأمانينا •• وعادت من جديد الى البكاء ، وأخذت تنتابها بين الفينة والاخرى نوبات حادة من السعال المتواصل يرتعد لها جسدها النحيل •• وقمت الى هذه الفتاة التي سلخت واياها أياما من أجمل حياتنا • قمت اليها أدثرها وأحضر لها كوبا من الشاي •• ولما هدأت عادت الى التحديق في أشيائي من جديد ، وكأنما هي ترثي كل شي في الغرفة التي شهدت أعز ذكرياتنا وآمالنا •• تماما كما يحدق الواحد منا الى انسان عزيز عليه يعرف أنه لن يلقاه أبدا • ومرة أخرى اتجهت صوب الباب تبغي الخروج وقد غامت عيناها بالدموع ، واختنق وجهها بالالم المكبوت •• وأحسست وأنا أحدق الى هذه الفتاة التي تغادرني الى غير رجعة •• أحسست بضلع كبير من أضلعي يتهشم ، وقلت وعيناي فوق المزلاج : ـ أهكذا بكل بساطة تذهبين •• حتى بدون كلمة وداع •• وعندما استدارت نحوي كانت عيناها محمرتين كالجمر •• وحاولت أن تتكلم ، الا أن الاضطراب الذي كانت تعانيه منعها حتى من النطق •• وأخيرا ضبطت من نفسها قليلا وقالت والدموع تفرق بين كلماتها : ـ لقد حان وقت عودته •• الى المنزل •• لا أستطيع أن أتأخر أكثر من ذلك •• قلت وقد صرفت جهدي في أن تكون لهجتي عادية : أو تخشين منه الى هذا الحد ؟

وأجابت بنفس اللهجة المضطربة ، وبنفس النظرات ـ أنت تعلم جيدا يا •• صديقي •• أنني لا آبه له ، وليس بي أدنى ميل اليه ، ولكن الازواج عادة يودون حين يؤوبون الى منازلهم أن يجدوا فيها زوجاتهم بانتظارهم •

وتراءى لي ، وأنا أتملى العينين العسليتين ، والعنق المرمري ، والشلال المتماوج ، والقسمات الحلوة المنمقة •• تراءى لي أنني أحب هذه الصبية الآن أكثر من أي وقت مضى وأنني سأقف لاقول لذويها ، وللعالم كله ، أنها لي وحدي وليس باستطاعة أحد أن ينتزعها مني •• وتذكرت اذ ذاك وجه أمي المغضن ، وعينيها العميقتين المخضلتين بالدموع ، لقد بكت في ذاك اليوم بحرقة ومرارة لم أعهدهما فيها من قبل •• وأتذكر أنني قلت لها وأنا أمسح دمعات صغار بللت خدي : ـ كوني متماسكة يا أماه •• ان أما مثلك عركتها الحياة ، وامتحنتها التجارب والمصائب ، ينبغي أن تظهر رابطة الجأش أكثر مما يجب ـ وأجابتني بصوت مخنوق ، وكلام تخفيه العبرات : ـ انها فلذة كبدي يا بني •• انه ما من شيء أصعب على الانسان من أن يفقد من يحبه ويعز عليه في ساعة لا يتوقعها أبدا •• غدا عندما تكبر يا بني وتصبح أبا وزوجا ، تعرف معنى الحب وتقدره حق قدره •• وتشعر أن أصبت بمحب عزيز ـ لاقدر الله تشعر بمرارة ولوعة وأسى يربض في قلبك الى الابد •

وودت لو أذرف دمعتين •• دمعة على الام الراحلة التي كانت لي كدواء ناجع لرجل مسلول •• ودمعة أخرى على هذه التي تجلس أمامي ، والتي هي الآن في حوزة رجل آخر •

ورفعت رأسها الي ، ورأت الدمع يجول في عيني •• قالت : ـ أنت تعرف حق المعرفة أنني أحبك •• وأنني أعيش الآن في جحيم ، ولا أستطيع حتى النظر اليه •• ولكن الامر ليس بيدي كما تعلم ، لقد عرفت ساعة قدومي الى هذا المكان أنني سأسبب لك آلاما مبرحة ، ولكن •• لا بأس •• لقد أردت فقط أن أطمئن عليك ، انها ذكريات حلوة أيها •• الصديق •• لقد قلت لي أنت ذلك ، قلت بأن الانسان اذا ما عاش دونما آمال وأماني وذكريات ، فانه سيكون كالميت •• اننا ••

كما قلت لي ذات يوم ، باستطاعتنا أن نسترجعها ـ أي الذكريات ـ في أي وقت نشاء ، ونستمتع بها ما أردنا ، انها ستعيش مع خفقات قلوبنا .. ولن تموت الا حينما تصمت قلوبنا .

ما أقل ما أستطيع منحه لهذه الصبية التي تجلس قبالتي ، والتي وهبتني وأعطتني بسخاء أكثر مما كنت أخمن .. ان ما يظنه الانسان في استطاعته ومقدرته ، قد يبدو له في أحايين كثيرة زائفا ليس فيه نصيب ولو ضئيل من الحقيقة .

قلت وقد اكتسى وجهي بطابع الجد ، وألم كبير انكمش بين تغضناته :ـ يجب أن لا تنسي بأنك متزوجة، وأن مجيئك الي في مرات قادمة يجعلك حديث كل الناس .. ينبغي أن تكوني حذرة ، ومن الافضل أن لا تأتي الي مرة ثانية .. أنت تدركين أني لا أبغي سوى مصلحتك في ذلك .

وأطرقت بالارض وقد احتقن وجهها بالدم ، وارتجف جسمها الوردي اللدن وبان الاسى والحزن العميق في كل خلجة من خلجاتها .. ومن فرجة باب المرسم المفتوح نظرت للمرة الاخيرة الى الفرشاة ، والالوان ، والمقعد الخشبي المتحرك والى رسمي الملون في اطار من الفضة والمثبت فوق الجدار .. والى ملابسي المعلقة على المشاجب .. والى كتبي وأشيائي المبعثرةدونما نظام .. وقبل ان تغلق الباب وراءها ـ التفتت الي ونظرت في وجهي طويلا ثم تمتمت بكلمة وداع قصيرة بللتها دموع حارة .. ووجدتني استرجع الكلمات الدامعة بشغف وحب وأسى .. واغمضت عيني ، واسترجعت مخيلتي صورة لم تتم لفتاة جميلة ذات عينين كبيرتين وشعر بني طويل ، وترتدي ثوبا أزرق ترصعه دوائر صغيرة بلون القمر .. وأحنيت رأسي حزينا . بينما ازدحمت في مخيلتي الوان يائسة .

محمد رهاوي

الفهرست

صفحة